هلوسة

مجموعة قصصية

علي الداودي

حق المؤلف © 2020 علي الداودي

جميع الحقوق محفوظة

علي الداودي

هلوسة

إهداء

إلى كل الأطفال..
إلى كل القلوب العاشقة للكتاب..
إلى كل من شجعني على إخراج هذا المولود للوجود..
إلى والدي ووالدتي وإخوتي..
إلى زوجتي وأبنائي..
إلى أصدقائي خصوصا مهدي وسعيد وحليمة..
إلى معلميّ..
شكرا جزيلا لكم جميعا.

المحتويات

	تمّهيد	ص 2
1	صناعة القطيع	ص 4
2	سنة أولى	ص 7
3	حنان	ص 11
4	إنسانة	ص 15
5	جمال	ص 18
6	رد اعتبار	ص 21
7	تسرع	ص 25
8	مسرحيتي	ص 28
9	عادل	ص 32
10	قرار	ص 36
11	الأول	ص 39
12	درس	ص 42
13	*هلوسة*	*ص 45*
14	بلال	ص 48
15	لعبتي	ص 51
16	أسماء	ص 53

17	**عمار**	**ص** 55
18	**الفلقة**	**ص** 58
19	**الحارس**	**ص** 61
20	**حمدي**	**ص** 64
21	**شعير**	**ص** 67
22	**الإملاء**	**ص** 70
23	**جمل**	**ص** 73
24	**عيد ميلاد**	**ص** 76
25	**ثقة**	**ص** 80
26	**امتحان**	**ص** 82
27	**النتيجة**	**ص** 86
28	**العطلة**	**ص** 88

تمّهيد

لازمتني الكتابة سنوات طوال منذ مرحلة الإعدادي، وفقدت العديد من كتاباتي إلّا مذكرة يتيمة كانت لا تفارقني، وقد اطّلع على محتوياتها بعض الأصدقاء فاقترحوا عليّ ألّا أكون أنانيّا، ورأواْ أنّ من واجبي أن أنشر ما كتبته. وفعلا نشرت بعضها على صفحات الفيس بوك وفي المنتديات، لكنّ ذلك لم يجعلهم يستسلمون، إصرارهم أقنعني بالإقدام على خوض غمار تجربة النشر، كلّ هذا دفعني إلى ضرورة تغيير بعض الأمور وألّا أسقط في فخ السيرة الذاتية المبتورة، ما دام هذا العمل يغطّي فقط فترات وجودي بالمدرسة، ولم أدرج فيه من حياتي خارج أسوارها إلّا ما هو ضروريّ لفهم الوقائع المسرودة، كما أنّني اضطررت إلى تغيير بعض الأحداث والأسماء حفاظا على خصوصيّة الأشخاص المعنيين، وعلى ذكراهم الجميلة عند البعض.

صناعة القطيع

اليوم الثالث في المدرسة، لا زلت لا أصدق نفسي!! ذلك الحلم الذي راودني، ها هو ذا يتحقق...شرحت المعلّمة الدرس، وشاركناها بحذر وتوجس، كانت إجاباتنا متنوعة، نبرات أصواتنا تختلف، وبين الفينة والأخرى يتعالى بكاء أحدنا مقابل ردّه الخاطئ.

لم أكن أخاف من المعلّمة بل كنت أحترمها، إجاباتي صحيحة وأنا على يقين من أنها كذلك، فعلم الحساب لعبتي، هوايتي، بل عشقي. لكنّها لم ترض أن أكون كذلك، كانت تريدني فردا من القطيع، تحبّ أن تجعل جسمي النحيل يرتعد بنظرة من مقلتيها، وتعشق أن تجعل جبيني ينضح عرقا وكلماتي تتمّزق حرفا حرفا وهي تغادر حنجرتي ... لم أنهزم،

واصلت جرأتي.

وزّعتْ علينا الكراسات، وطلبت منا فتحها على الصفحة السابعة، وكتابة تاريخ اليوم، ثمّ انتظار تعليماتها، ففعلنا، بعد ذلك طلبت منا إنجاز التمّارين وهي تصيح:

- إنها لحظة الحقيقة. والويل الويل لمن يخطئ!!

شرعنا في الإنجاز، فيما بدأت جولتها حاملة عصا غليظة هي جزء مكسور من مقبض مكنسة قديمة، كانت تمّسكها خلف ظهرها. أنهيت واجبي بسرعة، فقد كانت الأجوبة بديهية بالنسبة لي، ثمّ بدأت أتلصص على الآخرين، كنت في الصف الأوسط، الطاولة الثالثة، والمعلّمة بدأت بالصف القريب من مكتبها، بطبيعة الحال الطاولتان الأولى والثانية لأبناء الأغنياء وشخصيات المدينة النافذين، شرحتْ لهم مبتسمة، كان صوتها رقيقا عذبا، ورغم ذلك كان بعض الأطفال يتلعثمّون أو يكتفون بالحملقة في وجهها، فيما تباكى آخرون في محاولة لجعلها تنوب عنهم في كتابة الأجوبة.

أغلقت كراستي، ودفعني فضولي إلى قراءة الجمل المدونة على جدران القسم. فقد كنت ألتفت يمنة ويسرة أتحدى نفسي باحثا عن جملة تصعب قراءتها وفهمها، قرأتها كلّها، مما دفعني إلى تأمل الصور فإذا بخيالي يحملني بعيدا، وسافر بي إلى داخل إحداها، كنت واقفا خلف السيدة السمينة أنتظر دوري عند الجزار.

فجأة!! طنين عال في أذني يعيدني إلى مقعدي، رافقه ألم شديد في رأسي، ودمعتان دافئتان تتسابقان على خدّي، وسمعت صوت المعلّمة تصرخ بي:

- افتح كتابك أيها الغبي!!!

أردت أن أصيح لكنّ غصة كتمّت صوتي، فكّرت أن أنتفض وأحطّم كلّ شيء، لكنّ الضربة ثبتتني في مكاني وكأنّني مسمار صغير انغرس في قطعة خشبية بفعل قوة الضربة ... فتحتِ الكراسة، جالتْ بعينيها تبحث عن خطإ، أو عن مكان فارغ لم أملأه، وكنت أفتش في وجهها عن جواب لسؤال ظلّ يؤرقني ولا زال:

- لماذا ضربْتني يا معلّمتي؟؟

لم أجده، ولم تجد هي أيضا ما كانت تبحث عنه، فابتعدت دون اعتذار، ابتعدت دون تشجيعي، وقد آلمني ذلك أكثر من عدم اعتذارها. قلت في نفسي ستعتذر لك فيما بعد، وستشجعك عندما تقوم إلى السبّورة أثناء التصحيح، فعلا قمت إلى السبّورة وأنجزت تمّرينا، ولم تكلّف نفسها عناء شكري. ما شجعتني وما اعتذرت، حينها انضممت إلى القطيع، وأصبحت أخاف معلّمتي.

سنة أولى

في سنتي الأولى بالمدرسة تعلّمت أشياء كثيرة، كان أهمّها أن أحكم على الأنّسان من تصرّفه، ومعاملته وعمله، بدل الاعتمّاد على الأقوال الّتي أسمعها منه أو من غيره.

ما ميّز هذه السنة أنّني درست وتتلمذت على يد أربعة معلّمين: ثلاث معلّمات وفقيه.

بدايتي كانت مع معلّمة ساديّة، همّها الأول أن نخاف منها، بالخوف ننضبط، وبه نتعلّم.

من حسن حظّي أنّني كنت نحيفا وقصيرا، وهذا دفع التلاميذ الآخرين للاستمّتاع باعتراض سبيلي، وسرقة ما بحوزتي من أدوات

مدرسية، ممّا أثار غضب والدي.

في اليوم الرابع من بداية موسم الدراسة، كانت عصبة من التلاميذ بانتظاري، فقد صِرت مصدر تسليّة لهم، وأغلبهم يكبرونني سنّا. استوقفني زعيمهم، ودون مقدمات صفعني صفعة أفقدتني توازني، وأمسكني مساعدوه قبل أسقط، نزعواْ المحفظة من يدي، وشرعوا في تشتيت محتوياتها، وبينما كانوا يتخاطفون الأقلام والدفاتر، صرخ زعيمهم مستعطفا!!؟؟

التفتّ نحوه، فرأيت والدي يحكم إمساكه، ويهدّده بأخذه إلى مدير المدرسة: ففي ذلك الوقت كان مدير المدرسة مُهابا يلجأ إليه الآباء بدل اللجوء للشرطة. لم يكن أبي متأكدا من صدقي، فتبعني خلسة ليقطع الشكّ باليقين. ركله ركلتين ثمّ أطلق سراحه مهدّدا إيّاه إن عاد إلى اعتراض سبيلي ... لملمت كتبي وأدواتي، ورافقت والدي إلى المدرسة، اتّجهنا مباشرة إلى مكتب المدير، ليطلب نقلي إلى فوج المساء. قصّ عليه ما حدث، فاقتنع المدير.

كانت فرحتي لا توصف: والدي يهب لنجدتي. وسأتمّكن من مرافقة أخويّ إلى المدرسة، كما سأتمّكن من اللعب معهما وقت الفراغ، والأهمّ من ذلك كلّه أنّني سأتخلص من المعلّمة قاسية القلب.

معلّمة جديدة وقسم جديد، أجلستني في الخلف، مع المشاغبين والفاشلين، لم أهتمّ. كانت طيبة، لكنّها كانت تتعب بسرعة، وتخرج إلى المرحاض مرّات كثيرة، كما أنّها كانت لا تطيق الروائح النفاذة كريهة كانت أو زكيّة. تأقلمت بسرعة مع التلاميذ الجدد، وكونت صداقات، وبدأت علامات تفوقي تظهر، ومعها يتغير مكان جلوسي، إلى أن صرت في الطاولة الثانية قبالة المكتب. لكنّها تغيبت ولم تحضر، وكانت تلك آخر مرة أراها.

في البداية، كان المدير يُدخلنا إلى القسم، ويأمر الحارس

بمراقبتنا. هه! من سيراقب؟؟ عصابة من الشياطين؟؟ تتقافز وتتعارك ويُسمع صخبها من باب المدرسة، لا أحد يخافه، وهو لا يجرؤ على تأنيب أيّ أحد منا مخافة أن يكون والده شخصية مهمة .

بقينا على هذه الحال ثلاثة أيّام، وفي اليوم الرابع، ونحن في قاعة الدرس، دخل علينا المدير ببذلته الرمادية، يتبعه شيخ هزيل أسمر، اعتقدناه في البداية أبا لأحد زملائنا، لكنّ المدير فاجأنا حين أخبرنا أنّه معلّمنا الجديد بدل معلّمتنا التي أخذت رخصة ولادة، فقد كانت حاملا. تعالت بعض الضحكات، لكنّ المدير كان حازما وتوعّدنا بأقسى العقوبات إنِ اشتكى منّا المعلّم الجديد.

على بركة الله نبدأ، هكذا بدأ الفقيه؛ وأفضّل أن أسميه فقيها؛ بعد أن سحب طاولة، وجعلها مقابلة للصفّ الأوسط، صعد وجلس عليها واضعا قدميه على قطع الخشب الّتي نجلس عليها.

فجأة!! نزل مسرعا وغادر القاعة وكأنه نسي شيئا، تعالت همهماتنا، وقام بعض الجسورين: واحد يراقب الباب والآخرون يرقصون أمام السبّورة، لكنّهم سرعان ما عادوا إلى أماكنهم وهم يصيحون: إنه قادم!! إنه قادم!!

دخل الفقيه بجلبابه الأبيض، ولحيته الخفيفة البيضاء، يحمل عصا طويلة، كانت قبل قليل غصن السنديانة القريبة من بيت المدير. كلامه لم يكن مفهوما فقد بدأت الشيخوخة تفعل فعلتها، كما أنّ استعماله للهجة الحسّانية، بدل اللغة العربية، زاد من صعوبة فهمه، لكن كلام الله نفهمه، نحن الذين قضينا أربع سنوات في الكتاتيب، ولا زلنا نذهب إليها.

صعد على منبره الجديد، وشرع في استظهار سورة الفاتحة، طالبا منّا بإشارات من جسمه أن نتلو كلام الله نحن أيضا. ما أجملها من لحظة! سنحدث ضوضاء ونصيح ولن ينهرنا أحد، كانت بدايتنا قويّة، صدحت حناجرنا بالقرآن الكريم، لدرجة أنه أصبح مجرد ضجيج مزعج لنا

ولتلاميذ الأقسام الأخرى، وتفنّنا في استغلال الفرصة للعب: نجعل أصابعنا في آذاننا، ثمّ نخرجها، وكنا نتمّايل يمنة ويسرة، نقرّب أكفّنا من أفواهنا ونبعدها كي يرتدّ صدى صوتنا، لكن سرعان ما تعبت حلوقنا، وجفّت أفواهنا، وضعفت عزيمتنا، وبدأ الضجيج يخفت رويدا رويدا. والراعي ما كان ليرضى، فهبّ مسرعا، وبدأ يوزع ضرباته يمينا ويسارا على جديانه المجهدة، طالبا منها مواصلة الثغاء بدون انقطاع.

استمّر حالنا شهرا ونيّف، قرآن قبل الاستراحة وبعدها، في الصباح وفي المساء، لا شيء غير القرآن: فكرهنا الفقهاء، وطريقتهم في تعليم الدين. وبدأ أبناء الأعيان يشتكون لآبائهم، وكثرت غيابات التلاميذ المدلّلين، فجاء اليوم الذي تغيب فيه الفقيه وعاد الحارس ليراقبنا لثلاثة أيام متتابعة.

وفي الغد، وجدنا في انتظارنا شابة أنيقة، كانت هادئة، انتظرت إلى أن جلسنا في أماكننا، ومنحتنا فرصة لنتساءل من تكون؟

صمتنا، فأخبرتنا أنّها معلّمتنا الجديدة، وكنت أراها منقذتنا، وبفضلها حصلت على المرتبة الأولى.

حنانٌ

تدريجيا بدأ الرعب يتسرّب إلى قلبي الصغير، وأصبحت كلمة معلّم أو معلّمة تصيبني بالارتباك والخوف الشديد. أما الذهاب إلى المدرسة فقد أضحى نوعا من العذاب اليومي، رغم أنّني كنت متفوقا في دراستي!!!!

أي نعم، لقد غيرت القسم والمعلّمة. لا بسبب معاملتها السيئة فقط، بل أيضا لأتمّكن من مرافقة أخويّ اللّذين يكبرانني، بعد تعرضي لمضايقات واعتداءات وسرقات في طريقي إلى المدرسة، لكنّ الخوف تمّكن مني...

مرت الأيام، وبدأت تتكوّن شخصية أخرى هي نقيض ما أنا عليه، من طفل مشاغب وجريء إلى حمل وديع لا يجرؤ حتى على رفع صوته بالقراءة: بسبب الخوف من العقاب في البيت والمدرسة والشارع، لم

يكن من المستغرب أن أتحوّل تدريجيا من طفل مليء بالطاقة والحيويّة، يرفض الانصياع للقواعد، إلى مجرّد دمية خاصّة بالكبار، تعيش لتنفّذ أوامرهم وتجتنب نواهيَهم وتخضع لتقلّبات أمزجتهم، هذا التحوّل سيترك آثارا بادية على شخصيتي، لا زلت لحدّ كتابة هذه السطور أحاول جاهدا التخلّص من انعكاساتها السلبية عليّ.

خرجنا من القسم، إلى ساحة المدرسة، كانت خالية من الأشجار والنباتات، اللهمّ حيّز ضيق قرب بيت المدير الّذي يُمنع علينا الاقتراب منه، تراب وحصى ونتوءات من صخرة كبيرة مدفونة عميقا، وعمود يحمل العلم الوطني يتوسّط هذه الأرض التي وطأتها الدينصورات قبلنا، كان الجري ممنوعا حفاظا على سلامتنا. كنت أسير في الساحة باحثا عن صديقي عادل، ببطء شديد أتحرك، أتفحص الوجوه بحثا عنه دون فائدة، لن يجرؤ على الاقتراب من الركن الّذي يحتله كبار التلاميذ ويمنعوننا من الوصول إليه، لأنّ لهم أحاديثهم الخاصّة، كما أنّنا كنا في نظرهم صبيانا صغارا وهم الّذين بدأت تظهر عليهم علامات البلوغ، بشواربهم الكثّة، ولحيّهم الخفيفة، حتّى الفتيات اللائي أينعت أجسادهن، كنّ يخفينها خلف الجلابيب الفضفاضة، ونادرا ما يرتدين السراويل أو التنورات ... ربّما فعل، ربّما هو بينهم، فوالده قائد في الجيش، ولن يمسّوه بسوء، بينما كنت أفكر وأبحث عنه، اصطدم بي طفل بقوة، وجهه ارتطم بمرفقي مباشرة، فقد رفعت يدي لأحجب عن عينيّ أشعّة الشمس، سقط بقربي، نظرت إليه، فأمسكه مطارده قبل أن يقوم:

- **إنه دورك، عليك أن تطاردني. قالها مزهوّا، فرد عليه:**

- **لا لن أفعل!! لقد أسقطني هذا النحيف. يقصدني.**

لم أهتمّ لأمرهما، وتابعت بحثي عن عادل، فإذا بالّذي اصطدم بي يبكي، وشرع التلاميذ في التجمهر حوله، فالسائل الأحمر الذي بدأ يتدفق من أنفه بغزارة لا يقدّر بثمّن، وإهداره يستوجب العقاب.

أخذه الجمع إلى المعلّمة المكلّفة بالحراسة، ولم أبال به وبهم.

أين عادل؟؟؟ سؤال شلّ تفكيري، ولم أنتبه إلّا والحشد يتجه نحوي تتقدّمه المعلّمة ممسكة الطفل إيّاه بيدها اليسرى والأنّبوب الأحمر في اليد اليمنى.

- **هل هذا هو؟؟!! كان سؤالها للطفل. أجابها:**

- **أجل، إنّه هو!!!**

- **مُدَّ يدك! قالت لي بعصبية.**

لم أناقش، ولم أدافع عن نفسي، مددت يدي مرات ومرات، نزلت الدموع من عيني حتى قبل أن أتلقّى الضربة الأولى، وبعد انتهاء حصّة الضرب، كانت دمعاتي تتجمع أسفل ذقني لتسقط في حضن الأرض العطشى، توجّهت مباشرة إلى حجرة الدرس، وجلست أبكي عند عتبتها، ما هذه الإهانة؟؟ وما هذا الظلم؟؟

نسيت عادل، والبحث عن عادل، وانزويت في مكاني. وحيدا كنت، لم يواسني أحد، ولم يسألني أحد عن فعلتي التي كنت بريئا منها.

وبينما أنا كذلك، إذ سمعت صوتا رقيقا:

- **ما بك يا بني؟؟**

هذا الصوت أعرفه، إنه صوت معلّمتي، رفعت رأسي وقصصت لها كل شيء، حتى الأفكار الّتي جالت بخاطري بُحت بها، مسحت بكفها وجهي الصغير، وأمسكتني من يدي، وأخذتني إلى الّتي ضربتني تستفسرها. كانتا تصرخان، لكنني لم أسمع ما قالتاه، كنت محمولا بيدها اليسرى، وجسدي الصغير ملتصق بخصرها. لأول مرة أرى التلاميذ من أعلى، لم أعرف من أين نبعت ابتسامة لترتسم على وجهي؟ اختلطت عليّ المشاعر، ونزلت دمعة أخرى على خدّي لكنّ طعمها مختلف، دمعة

الفرحة، إنها فرحة الاكتشاف: هذا المخلوق الكبير المخيف الّذي نسميه معلّمة، يحمل كلّ هذا العطف والحنان .

زادت فرحتي حين حملتني إلى القاعة، وأجلستني على كرسيها الجلديّ الوثير، ووضعت أمامّي ورقة بيضاء، وأخرجت أقلام التلوين، قبل أن تطلب مني رسم ما يحلو لي، وأن أكمل فترة الاستراحة على مكتبها. مسّني تصرفها في مقتل، لكن نشوة الانتصار التي أحسستها طغت على كل شيء، فبدل أن يتحدث التلاميذ عن حصّة الضرب، سيتحدثون عن ابن الخباز الّذي تشاجرت بسببه معلّمتان، والّذي حملته المعلّمة، وأجلسته على مكتبها، وكافأته بحلوى لذيذة لم يسبق له أن رآها. وهي لا تعلم أنها بفعلها ذلك زرعت بذرة الثقة في نفسه، وأحسّ أنه طفل مميّز ليس كغيره من الأطفال.

إنسانة

نهاية السنة، حفل التميّز، ساحة المدرسة ممتلئة عن آخرها، آباء وأمّهات وأطفال. الكلّ في زينة وكأنّهم مدعوّون إلى عرس، أو بالأحرى فرحون بالعيد، كنت أنا وقلة من الأطفال نرتدي ثيابا قديمة، لكنها نظيفة، أمسكتني أختي الكبرى من يدي مخافة أن أضيع، وتوجّهت بي وسط الحشد نحو مكان تسليم الجوائز على المتفوّقين، كان المنظر مهيبا، جميع المعلّمين جالسون على الكراسي، والمدير يتوسّطهم، وأمامهم منصة يقف عليها شخص يعلن أسماء الفائزين، ويطلب فردا من طاقم المدرسة ليسلّمهم الجوائز، كنت أنظر إلى الوجوه، وإلى الملابس، ربطات عنق وبذلات، أو جلابيب مطرزة صفراء أو بيضاء للرجال، وزاهية الألوان للنساء، التقت عينانا، لن أنسى ابتسامتها، جلباب أخضر مطرز بخيوط ذهبية، ونظارتان شمسيتان تغطيان نصف خديها، انتظرتْ سماع اسمي، فهبّت واقفة، سحبتني أختي نحو المنصّة،

فأوقفها المدير :

- تعالي يا ابنتي، أين والدك؟؟

- والدي مشغول، إنه في عمله، لم يسمح له مشغّله بالغياب .

- ووالدتك؟ آه!!! والدتي، تلك الإنسانة الطيّبة، هل ستخبره أنّ حياءها يمنعها من حضور حفل فيه رجال؟؟؟

- أمّي في البيت. أجابته أختي .

كانت المعلّمة قد وصلت إلينا، أمسكتني من كتفي وألصقتني بها وكأنّها تحميني، علمتْ من المدير طبيعة المشكل، فاقترحت عليه أن تنوب عن والدتي، لكنّه رفض بشدة، مدافعا عن حياد طاقم المدرسة. فغضبت، وانسحبت من الحفل وهي تسحبني من يدي، وقفنا عند باب المدرسة، فاستأذنت أختي كي تسمح لها بأخذي معها، وكان لها ما طلبت.

أخذتني باتّجاه سيّارة عسكريّة من نوع لاّند روفر، أخضر غامق لونها، تحمل لوحتها السوداء أرقاما بيضاء بجانبها حرفان عربيان باللون الأحمر: ق س، لم أكن أعلم أن زوجها عسكري، فتح لنا جندي باب السيّارة الخلفيّ، ثمّ انطلق نحو البيت.

إنها تسكن بالقرب من مقر العمالة، كانت هذه المساكن تمنح لكبار الشخصيّات المدنيّة والعسكريّة، زوجها إذا رجل مهمّ ، فلماذا يسمح لها بالعمل؟؟؟ سؤال بريء تبادر إلى دهني حينها.

فتحت الباب وأدخلتني، أخذتني إلى المطبخ، ثمّ وضعت أمامّي قطعة كعك، وكوب عصير بارد، كان حجمهما كبيرا، ناولتني ملعقة وطلبت منّي أن أستمّتع بمكافأتي، في حين اكتفت هي بكوب عصير،

كنت ألتهم الكعكة التهاما حين دخل علينا زوجها، فأخبرته:

- هذا هو.

توجّهت نحوه، مدّ يده ليصافحني، فانحنيت عليها لأقبّلها، لكنّه سحبها بسرعة. أخبرتُه بمشكل الجائزة الّتي لم أتسلّمها، وتابعا حديثهما باللغة الفرنسيّة الّتي لا أفقهها، ثمّ خاطبني :

- اهتمّ بدراستك، وكن متفوّقا دوما، أنا فخور بك يا بنيّ.

كانت هذه الكلمات بمثابة سماد أو غيث جعل بذرة الثقة في نفسي تنمو وتكبر. أنهيت طبقي، فرافقتها إلى الخارج، ركبنا السيّارة مرة أخرى، سارت بنا قليلا ثمّ توقفت، طلبت مني أن أنتظرها، كنت أنظر من جهة السائق لأعرف أين نحن، لكنني بالكاد لمحت واجهة المكتبة، فقد كان السائق يحجب عني الرؤية بجسده الضخم، عادت تحمل في يدها هديّة ملفوفة بعناية في ورق ذهبي لمّاع، مزركش برسوم لعصافير وأزهار ملوّنة، سلّمتني الهديّة قائلة :

- هذه جائزتك، أنت تستحقّها، ولا تسمح لأحد أبدا أن يحتقرك، ولن يتأتى لك ذلك إلّا بالعلم .

كنت أتحسس جائزتي، بل هديتي كانت عبارة عن قصتين وبضعة دفاتر وأدوات مدرسية، أمسكت يدها وحاولت أن أقبّلها فضمتني إليها وهي تضحك، ثمّ سألتني عن مكان إقامتنا، فأخبرتها. حملتنا السيّارة إلى حيّنا وتوقفت قرب باب بيتنا، طلبت مني النزول، وودعتني بعد أن فتحت أختي الباب.

جمال

علامات المرض تعود من جديد، يبدو أنّني سأعاني مرّة أخرى، فلم يمض على شفائي سوى أسبوعين، وها هو المرض يحنّ إليّ، ويقرّر زيارتي. تحاملت على نفسي، وقمت من فراشي، وأنا أغالب الرغبة الملحّة في الخلود إلى النوم، اختارت لي أختي ما سألبسه، وهذه المرّة لم أتذمّر ولم أجادل، كسرتان أو ثلاثة من الخبز المغمّس في زيت الزيتون، ورشفات من شاي حار بالنعناع، كنت شاردا، بالكاد أستطيع البلع، ولم أطق صوت المذياع الموضوع قبالة والدي على المائدة. حملت محفظتي، وخرجت من البيت.

تجمهر التلاميذ عند باب المدرسة ينتظرون فتحه: جماعة تحمل الدفاتر تحفظ بعض الدروس، وأخرى تعالت أصوات أفرادها وهم يتحدثون عن بطل الفنون الحربية بروس لي، وآخرون يتقاسمون ما

لديهم من حلوى ومكسّرات، وهذا ينقل واجبه من دفتر زميله، والبقية يركضون هنا وهناك...من كثرة إجهادي، جلست على الرصيف المقابل لباب المدرسة، جاءني جمال يركض هو يصيح:

- قم لنلعب، سنتبارز.

أخبرته أنّني متعب ولن ألعب معه اليوم، ولا قوّة لي للمبارزة أو أيّ شيء آخر. بدأ يلحّ عليّ، فرفضت وأصررت على الرفض، فانطلق باتجاه زملائنا، يضرب هذا، ويركل ذاك. طأطأت رأسي، وبأصبعي بدأت أرسم خطوطا على كومة التراب المتجمعة بين قدمي، لم ينتشلني من ذلك إلا صوت الجرس يعلن فتح باب المدرسة. قمت من مكاني. كان رأسي ثقيلا، لم أستطع رفعه، وكان عليّ ذلك، على الأقل لأتجنب الضربة التي أسقطتني، فجمال لم يستسغ رفضي اللعب معه، ولم يفهم أنّني مريض، قلّد بروس لي، فقفز قفزة وبرجله ركلني على صدري وألقاني إلى الخلف، ليرتطم رأسي بالنتوء المتبقي من الرصيف القديم.

لا أدري من أين جاءتني القوّة على القيام بسرعة، ربّما الخوف من التأخّر عن موعد تحيّة العلم وترديد النشيد الوطني، وربّما هي الرغبة في إعطاء انطباع للآخرين أنّني قوي وجلود، المهمّ أنّني قمت بسرعة، وانحنيت على محفظتي الملقاة، حملتها وكأنّ شيئا لم يحدث، وأنا أعتدل قائما، أحسست بالدفء ينتقل من قفاي إلى كتفيّ ثمّ ظهري، مددت يدي إلى مكان ارتطام رأسي بالرصيف لأرجعها حمراء فاقع لونها، والعجيب أنّني لم أبك، ولم أبال. هرعت المديرة إليّ تتفحّصني، كنت شبه مخدّر، حملتني بين ذراعيها، وأدخلتني حمّام منزلها، نزعتْ قميصي وغسلتِ الدماء بعد توقّف النزيف، تركتني واقفا في الحمام، وعادت تحمل قميص ابنها وسرواله، فغيّرْت ملابسي، وتركت عندها تلك الملطّخة بالدماء، تلك التي اشتراها لي أبي بمناسبة عيد الفطر، والّتي أحب ارتداءها.

اقتادتني المديرة إلى مكتبها، واستدعت الحارس، وأمرته بأخذي إلى المستوصف القريب. أمسكني من يدي يسحبني وأنا أهرول لأجاريه في مشيته، دخلنا المستوصف. كان يعجّ بالأمهات اللاتي جلبن صغارهنّ من أجل التلقيح، شققنا طريقنا بينهم، وبصعوبة وصلنا قاعة العلاج. بوزرته البيضاء، وشاربه الكثّ، استفسر الممرض:

- ما به؟؟ يقصدني

قص عليه الحارس ما سمع، وأراه مؤخرة رأسي، تفقدها، وأخبره أنْ يعود بي بعد اقتناء لقاح الكزّاز. هكذا تخلّص منا.

عدنا أدراجنا. أخبر الحارس المديرة بطلب الممرض، نظرت إليّ وخيّرتني بين العودة إلى المنزل، والالتحاق بزملائي في قاعة الدرس، فاخترت الثاني.

رافقني الحارس إلى القسم، وأخبر المعلّم بما حدث، فسمح لي بالدخول. مكاني فارغ، وجمال غائب. استفسرت زملائي، فأخبروني أن المديرة طردته، وطلبت منه ألّا يحضر إلّا برفقة والده.

ردّ اعتبار

معلّمي رجل متواضع، فهو ليس كباقي المعلّمين، يتصابى في القسم، لا يترفّع، يجالس الفقراء، يحيّيهم، يحدّثنا بأدب، ويخاطبنا بابا للذكور وماما للإناث، لم يكن ديكتاتوريّا كالآخرين رغم أنه صارم، إيّاك أن تُغضبه، كان لدينا هامش من الحرية. وكنت مفضّلا لديه، يناديني كلما أراد أن يشرح عبارة لم تهضمها عقولنا الفتيّة، فكنت مساعده في التمّثيل: فمرّة كنت قردا وهو الطبّال، ومرّة كنت ثعلبا وهو الغراب أو الديك، كان دائما يطلب منّي أن أرفع صوتي أثناء القراءة، كان يفضّل أن نجلس جلسة مختلطة كل صبيّ بقربه صبيّة إلّا المتعثرين الّذين ألفنا أن نراهم في المقاعد الخلفية منبوذين من الجميع، وكأن فشلهم معدٍ، لا يقترب منهم أحد، ولا يرافقهم أو يلعب معهم أحد، لا أدري ما الّذي جعلني أكسر هذه القاعدة، ربما هي بذرة الثقة التي زرعتها فيّ معلّمتي السابقة، بل أكيد هي الّتي جعلتني أرافقهم وأكلمهم وألعب معهم أثناء

الاستراحة، وأحيانا أشرح لهم، فقد كنت أشفق عليهم، وكانوا يحبونني، ويدافعون عني إن اعترض أحد سبيلي.

النظيفي معلم القسم الثاني بمدرستنا، البعض يهابه، لكنني كنت أقدّره وأحترمه، فهو يعرف أبي، وكان يصافحه كلّما التقاه في الشارع. هذا المعلّم جعلني أكتشف حبّي للرسم الّذي كنّا ننتظر حصّته بشغف كبير. وكان يرسم لنا على السبّورة خطوطا ويحوّلها إلى أشكال رائعة المنظر: شمعة وكتاب وكرسيّ خلف طاولة وكأس بها ماء ... كان يطلب منّي أن أرسم أشياء جميلة نزيّن بها قاعتنا، وكنت غالبا ما أرسم السفن، كانت كل رسومات السفن المعلّقة على الجدار من إبداعي، لا أعلم لماذا كنت أرسم السفن بالضبط؟!!! ربما كنت أرغب في الهروب بعيدا، وربما لأنّ الحياة التي نعيشها عبارة عن سفينة تحملنا نحو أحلامنا، هذه الأحلام التي سألّنا مرّة عنها :

- ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟؟؟

اختلفت إجاباتنا، كنت أحلم بلباس عسكريّ، وبفضله أصبحت أحلم وأفكّر أصبح مثله، معلّما محبوبا من التلاميذ. كان يشبه عمّي ادريس، تلك السلسلة الّتي سلبت عقولنا ونحن أطفال. وهذا زاد من تعلّقي به، ورغبتي في أن يفخر بي.

دخلنا إلى قاعة الدرس، يبدو أنّنا لن ندرس اليوم، فمعلّمنا مشغول بوضع نقط الامتحان، وعلى مكتبه وضع دفاترنا ليصحّح إنجازاتنا، وأمامه أوراق فيها جداول، كان يكتب قليلا ويرتشف من فنجان شاي قربه، وبين الفينة والأخرى يخرج سيجارته، يشعلها ويقف قرب الباب ليدخنها بسرعة قبل أن يعود لمكتبه.

طلب منّا أن نجيب عن الأسئلة المرافقة لنصّ القراءة، وكنّا نزعجه بضجيجنا، فكان يقطع الضوضاء بضربة من كفّه على المكتب، فيعم الصمت المكان، وكان يتوعّد بعض التلاميذ، لكنه لا ينفذ وعيده.

أنهيت واجبي، وكذلك فعل جمال ومنى وأسماء، فاقترحت منى الّتي تجلس بجانبي أن نلعب لعبة، أخرجت علكة وضعتها في فمها، وأخبرتنا أنّها ستخبّئها داخله ، ومن يخمن مكانها تهديه علكة جديدة، ليخبئها بدوره، لم أتحمّس للعبة، فقد كنت أعلم مدى كره المعلّم للعلكة ولمن يمضغها، فلم أشاركهم، لكنهم ألحوا عليّ أن أكون حكما، فقبلت، بدأت اللعبة ونسينا أنفسنا، دورة تتبعها دورة.

انتشلني صوت المعلّم وهو يناديني، التفتّ إليه فأشار إليّ أن أقترب منه، قمت من مكاني فرحا، لعلّه يريد أن يرسلني إلى المدير لأحضر له شيئا، أو ربّما هي قنينة الماء فرغت ويريدني أن أملأها ... وقفت أمام المكتب، فأشار إليّ أن ألفّ وأقترب منه، ففعلت، هذا أمر مهمّ يريد ألّا يسمعه أحد من الجالسين قريبا من المكتب، عمّ الصمت المكان، وبدأت العيون ترقب ما يحصل، سرت مزهوّا مفتخرا أمام الجميع، اقتربت كثيرا من معلمي، لكنّه لم يتكلّم، فاقتربت أكثر، فإذا بكفه تنزل على خدي الأيسر، تاركة آثار أصابعه مطبوعة باللون الأحمر على وجهي، جسدي التفّ وأصبح مقابلا للباب، فزادني ركلة برجله على مؤخرتي، جعلتني أقفز من مكاني، فأصبحت أمام السبّورة مباشرة، حينها استوعبت الجملة التي قالها:

- لماذا تلوك العلكة؟؟؟

أجهشت بالبكاء، وعدت إلى مكاني بعد أن أمرني بذلك بصعوبة كبيرة بسبب الطنين المنبعث من أذني . سمعت أسماء تدافع عنّي وتخبر المعلّم أنّ العلكة يمضغها جمال.

ثارت ثائرته، لم أره من قبل في تلك الحال، وخصّص لجمال حصّة من الضرب، جعلته يكره العلكة ومن يبيعها أو يلوكها، بعد ذلك ناداني، وأجلسني على فخده، وناولني كعكا من رفّ المكتب، وطلب منّي أن أقبّله كعربون مسامحة على الخطإ الّذي وقع فيه، علمت حينها أن المعلّم

إنسان، وأن من المعلّمين من فضل أن يتخلّى عن إنسانيته.

تسرع

معلّمكم مريض، ولن يحضر...هكذا خاطبتنا المديرة وهي تطلب منّا أن نجمع أدواتنا، وأن نخرج بنظام إلى الساحة، وهناك تمّ تقسيمنا إلى مجموعتين، المجموعة المحظوظة ستلتحق بتلاميذ المستوى الثاني عند المعلّمة، أما المجموعة الثانية فيرحّب بهم معلم المستوى الثالث، وكنت منهم. أحسسنا بالغبن، فالمعلّمة معروفة بحبّها للأنّشطة الفنيّة، وتلاميذها يحفظون ما يزيد عن عشرين نشيدا وأغنية من التراث المغربي، كما أنّها مسؤولة عن فرقتي المسرح والرقص في المدرسة .

دخلنا واحدا واحدا والمعلّم عند الباب مادّا يده لنقبّلها، بدأ الصياح والضجيج، فتلاميذه يدعون معارفهم وأصدقاءهم منّا للجلوس بينهم، اضطررنا للتزاحم، فجلس ثلاثة تلاميذ على كل طاولة، لا زال المعلّم

يحدّث المديرة ما أعطانا هامشا من الحرية.

بقيت عند السبّورة لأنّني لم أتلقّ أيّة دعوة، كما أنّ محاولتي الأولى للانضمام إلى تلميذين من المستوى الثالث قوبلت بالرفض: ابن الخبّاز لن يجلس قربنا، هذه ذريعتهما، كما أنّ الأماكن قرب معارفي تمّ حجزها .

غادرت المديرة نحو مكتبها، ودخل المعلّم رزّوق، وبنظرته الثاقبة تصفّح الوجوه، فإذا بالصمت يعمّ المكان، وبنبرة دافئة خاطبنا نحن الواقفين عند السبّورة، نحن الذين رفض تلاميذ الثالث قبولنا بينهم، نحن المنبوذين:

- ألم تجدوا مكانا؟؟

وبصعوبة تخرج كلمة "بلى" من فمي، فما سمعته عن المعلّم، من تلاميذه الحاليّين والسابقين، جعلني أتسمّر في مكاني كلّما رمقني، فما بالك إن وجّه حديثه إليّ؟؟ رعب حقيقيّ كان ينتابني، كنت أحسّ بحركة غريبة في أمعائي، إنّها خيول من الغازات تسابق الريح في نفق مظلم نحو الخارج، بالكاد أتحكّم فيها وأمنع نفسي من الضراط، يصعد الدم بقوّة إلى رأسي، فيبدأ جبيني بالتصبّب عرقا، قليلا في البداية لكنّه يصير ينابيع تجعل وجهي شاحبا، دقّات قلبي تتسارع، وتبدأ المعاناة مع الحوار الداخلي، فبدل أن يعمل عقلي على التفكير في حلّ، يبدأ في محاورتي: اليوم يوم الحساب، ستدفع الثمّن غاليا، ستصير أضحوكة في المدرسة، ستصنع لنفسك لقبا سيرافقك إلى قبرك ... وأجاهده لأسمح لحواسي بنقل ما يحدث، بالكاد أستطيع سماع الكلمات، ولساني يصير جلمودا، حتى يخيّل إليّ أنّني فقدته، يجفّ فمي، وبصعوبة أجد ريقا لأبلعه لعلّه يرطّب حلقي، قدماي بالكاد تحملانني، لقد أصبحتا خفيفتين، تنتظران فقط إشارة لتنطلقا دون توقّف، عقلي يخونني مرّة أخرى، ها هي أغنية لا أدري مصدرها، لكنّها تصف حالتي، والغريب في الأمر

أنّها باللغة العربيّة:

اصفرّ وجهه

واشتدّ خوفه

وزمّ ثغره

وبحّ صوته

اليوم يومه

سيتمّ ضربه

إنّه يستهزئ بي، هذه الأغنية ستلازمني، ولن يكفّ عن تريدها كلّما انتابني الخوف في المدرسة إلّا في المرحلة الثانوية.

يد المعلّم رزّوق على كتفي وأنا منصاع، لا حيلة لي، ظننته سيعاقبني، لكنّه أخذني إلى المكان الّذي سأجلس فيه، ولكي يطمئنني ابتسم في وجهي، وبادرني، كأنّه يحاول إقناعي بتغيير حكمي عليه:

- لا داعي للخوف بنيّ، فأنت لم تفعل شيئا يستدعي العقاب .

كانت هذه الجملة كافية لتبدّد الخوف الّذي اعتراني، وارتسمت ابتسامة باهتة بلهاء على وجهي، في حين تعالت ضحكات التلاميذ، وكانت التفاتة من المعلّم نحوهم كافية لردعهم.

بدأت الطمأنينة والسكينة تتسربان إلى قلبي، فتناقصت نبضاته، واستعدت توازني، فقد ذهبت أعراض الخوف كلّها، خوف لا مبرّر له، زرعَته في نفسي أقوال صدّقتها لسذاجتي.

مسرحيّتي

بدأت الاستعدادات للاحتفال بعيد العرش، كم كنّا نعشقها، بفضلها نتخلص من رتابة الدروس، من عذاب الحفظ، من كآبة حجرة الدرس. سنحفظ أناشيد جديدة، ومنّا سيختارون المحظوظين الّذين سيمثّلون المدرسة في الاحتفالات الرسميّة، الباب مفتوح في وجه الجميع، شرط واحد إن توفّر فيك تمّ اختيارك، يكفي أن تكون من المتفوّقين. ما لم نستطع التخلّص منه هو ساديّة بعض المعلّمين، فحتى في تدريبهم لنا، وفي عملهم معنا لإتقان الاستعراض أو رسم لوحة فنية بأجسامنا الصغيرة، كانوا قساة متسلّطين، سبّ وصفع وركل ولطم، حتى الفرح لا يعرف طريقه إلى قلوبهم .

كنت متحمّسا جدّا، طلبت من أختي أن تلقّنني الأنّاشيد الّتي تحفظها، هي الّتي تدرس بالمتوسط الأوّل، أو القسم الرابع، إنّها معلّمتي

الأولى، وما بخلت عليّ: "إيه أمّة المغرب"، "أنا المغرب" ، "مغربنا حبيبنا" ، "صوت الحسن" ... كلّها أناشيد حفظتها عن ظهر قلب استعدادا لليوم المشهود.

" البرد قارس

في شهر مارس

والكلب حارس

على المدارس "..

كنّا نغنّي في طريقنا إلى المدرسة، وصلنا كعادتنا قبل الوقت، أخرج السالك علبة عود الثقاب، أشعلنا النار في الأوراق المتناثرة في الشارع بعد أن جمعناها طلبا لدفء مفقود، من حسن حظّنا وجود علب الكرتون الفارغة الّتي تخلّص منها تجّار الحيّ. كانت النار حارقة والدخان كثيفا، امتصّته أجسادنا وملابسنا .

دقّ الجرس، واصطففنا أمام حجرات الدرس. أدخلَنا الحارس طالبا منّا التزام الصمت، يبدو أنّ المديرة دعت المعلّمين لاجتمّاع، كانت القاعة تعبق برائحة الدخان. بعد دقائق، دخل المعلّم النظيفي حاملا أوراقا، رماها على المكتب، وأخرج من جيبه سيجارة وبدأ ينفث دخانها. يبدو أنه غاضب!!! ترى ما الّذي أغضبه؟؟؟؟

طلب منّا فتح كتب القراءة، وكتابة نصّ " القرد والمهرّج". شيء غريب، فهذا النصّ سبق وقرأناه، وأنجزنا تمّارينه ... ليس من عادة معلّمنا تكليفنا بكتابة نصوص القراءة لا في البيت ولا في المدرسة، لم نناقشه، وبدأنا عملنا، في حين توجّه نحو الباب، واتّكأ عليه وهو يدخّن بشراهة، سيجارة ثانية فثالثة، ما باله؟! اعتدل في وقفته، حيّته معلّمة المستوى الثاني ثمّ دخلت، وبدأت بالحديث مباشرة:

- ليلتحق بي قرب السبّورة كلّ من سمع اسمه:

أنصتنا بكل جوارحنا .

- حسناء، مارية، منى، يوسف ...

لا يعقل!! هناك خطأ ما!!؟؟ يوسف ليس من المتفوّقين، كما أنّه لا يستطيع نطق حرفي الكاف والراء، كيف سيشارك؟؟ لماذا اختاروه؟؟؟ ألأنّه ابن مدير البنك؟؟

- اتركواْ محافظكم هنا ورافقوني .

غادرت المعلّمة يتبعها "المتفوّقون"، وتركتني غارقا في بحر من التساؤلات، لماذا لم أسمع اسمي؟؟!! فقد حصلت على الرتبة الثانية في اختبارات الخريف: ربّما شكلي: فأنا نحيف وقصير؟ لا إنّها ملابسي الفضفاضة الّتي كان يلبسها أخي؟ لا ليست ملابسي بل لأنّني ابن خباز؟ ...

قطع عليّ المعلّم شرودي حين سمعته يطلب منّي قراءة الفقرة الأولى. يا إلهي!!! سنقرأ النصّ مرّة أخرى !!!

كان صوتي صاخبا يتردّد صداه داخل جمجمتي بسبب الصدمة، لكنّ المعلّم طلب منّي أن أرفعه، توجّه نحوي، كنت خائفا، فليس من عادته الاقتراب من التلاميذ أثناء القراءة إلّا ليعاقب المقصّر منهم، فكنت أنظر إلى الكتاب تارة لأقرأ وأرفع رأسي تارة أخرى لأتتبّع حركاته كي لا يفاجئني بصفعة كما فعل في المرّة السابقة، دنا منّي وأمسك أذني بلطف وقال:

- هل هذا هو الزر؟؟ أأديره يمينا أم شمالا كي يرتفع الصوت؟؟

ضحك زملائي، في حين علت حمرة الخجل وجهي وانطلق صوتي

صاخبا أكثر فأكثر، دون جدوى، إنه يكرّر طلبه، ترى هل أصبح أصمّ؟؟ أم يريد إحراجي؟؟

أطلق أذني، ومرّر يده على قفاي ثمّ على ظهري قبل أن يربّت على كتفي، نظرت إليه، فوجدته يبتسم، تعجّبت من ذلك، وقبل أن أستوعب ما يحدث طلب منّي أن أكف عن القراءة وأقوم من مكاني، ففعلت.

- **سنمثّل أنا وأنت!! قالها وهو ينظر إليّ، وما كنت لأرفض.**

أضاف:

- **أنا المهرّج وأنت القرد، فأنت بمثل حجمه، كما أنّ النصّ يتحدّث عن قرد وليس غوريلا.**

تعالت القهقهات، وكانت ضحكته أعلى وأوضح. كان كمن يمسك حبلا وكنت أتبع أوامره: مرّة أقفز وأخرى أتشقلب غير آبه لأتربة الأرضية الّتي التصقت بثيابي، أعجبتني الفكرة وانسجمت لدرجة أنّني كنت أقوم بحركات القرد، قوّست ظهري، وجعلت يديّ القصيرتين تلامسان قدميّ، وصرت أتمّايل كقرد سرك، وفي الختام طلب منّي أن أرقص على نغمات تطبيله، فتمّايلت بجسد القرد الذي كنته، وحينها فقط أدركت لماذا كان أبي يلقّبني بالقرد: سرعة حركاتي وكثرة نشاطي وقدرتي على التسلق.

خلقنا جوّا مرحا، أزاح عن قلبي الغمّة، واستطعنا أن نُدخل قليلا من البهجة لقلوب زملائي الحاضرين.

توقّف المعلّم قائلا: هذا حفلنا، وهذه مسرحيتنا، لا تهتمّوا بالآخرين، يقصد المختارين الّذين رافقوا المعلّمة للتدرّب على العروض التي ستقدّمها مدرستنا أمام شخصيّات المدينة.

عرفت سبب غضب معلّمي، وكان هذا كافيا ليزيح عن صدري إحساسي بالغبن، ومن هنا بدأ تحفّظي من الارتباط بأبناء من ليسوا فقراء مثلي، وصرت أتهرب منهم قدر المستطاع، كما فقدت مبرّرا يدفعني للاجتهاد والتفوّق في دراستي.

عادل

- اجمعوا أدواتكم! وانصرفوا بنظام!!

جمعنا أدواتنا، وانتظمنا مثنى مثنى في صف أمام السبّورة، في انتظار إشارة المعلّم، أفضّل أن أقف في آخر الطابور، مما يتيح لي فرصة مراقبة الآخرين، وتجنب الاحتكاك أو التدافع.

خرجنا من حجرة الدرس، واتّجهنا نحو باب المدرسة، عادل يمسك يدي ويسحبني بقوّة، فلا أجاريه، وأسير بخطى وئيدة.

غادرنا المدرسة، توقّعت أن يودّعني صديقي، كما هي عادته، ويطلق يدي، كي أسابق الريح باتّجاه المنزل، فالجوع يمزّق أحشائي، لكنّه ما فعل، وسحبني باتّجاه سيّارة الجيب العسكريّة الّتي تنتظره. جميل!! سيوصلني ويريحني من عناء الركض، صعدنا، وجلست على

الكرسيّ الخلفيّ وحيدا، سألني الجنديّ:

- أين تسكن؟

أجبته، فانطلق بنا نحو البيت. عند وصولنا ودّعت عادلا، وأردت النزول، لكنّه أمسك بي وطلب مني الجلوس، ففعلت.

غادر السائق السيّارة، وطرق باب بيتنا. فتحته أختي، حدّثها، فنادت أمّي، الّتي رأيتها تهزّ رأسها موافقة على كلامه، يبدو أنّني ضيف عادل.

وصلنا حيّ الضباط، وكما يدلّ على ذلك اسمه فسكانه من ضباط الجيش وأسرهم، ووالد عادل قائد.

توقّفت السيّارة أمام بيت من البيوت المتشابهة، ترجّلنا، أسرع عادل يسحبني صائحا ها هو لقد أحضرته.

هذا المكان لا يشبه البيوت الّتي دخلتها من قبل، إنّه قريب لما أراه في الأفلام الأجنبيّة على التلفاز. قبّلت يد والده بصعوبة فقد تمّسكت بها وحاول أن يسحبها، لكنّ خوفه من إحراجي جعله يتراجع، والدته!! يا إلهي!! ما هذا؟؟؟ لأوّل مرة أرى أمّا تلبس تنّورة!! انحنت وقبلتني مرحّبة. وضعت محفظتي في المكان الّذي اقترحه عادل، غسلنا أيدينا، واتّجهنا للطاولة، الغذاء جاهز. الكتب في كلّ مكان .

كأيّ طفل من عائلة فقيرة اعتدت الجلوس على الأرض، هنا عليّ أن أجلس على كرسيّ، هه أجد صعوبة في استعمال الملعقة فما بالك بالشوكة والسكين!!! وهذه الأصناف المختلفة لم أتعرف منها سوى السلطة، عالم جديد مبهر. اللغة الفرنسيّة طاغية على أحاديثهم، فقط أنا وعادل من كنا نتكلم العربية، ولولا كلمات الترحيب لاعتقدت أنهم أجانب.

تناولنا غذاءنا، ثمّ اتّجهنا إلى غرفة صديقي، المكان مرتّب بعناية، كلّ شيء في مكانه، سرير مريح، ومكتب، وخزانة وتلفاز. جلست منبهرا بما أرى، أما عادل فقد أخرج بعض اللعب من الخزانة ووضعها أمامّي، ثمّ طلب منّي أن أختار واحدة كهديّة، اخترت سيارة حمراء وشكرته، سحب رفّا من رفوف المكتب وأخرج بسكويتا وشكلاطة ثمّ ناولني حصّتي قائلا:

- سنتناولها أثناء الاستراحة.

هززت رأسي كالأبله، غير مصدّق ما يحدث، وحيّرتني هذه الأسرة بتعاملها. نادانا أب عادل فالتحقنا به، كان يجلس على وثاب وثير، وبيده فنجان قهوة، وضعه على الطاولة الّتي أمامه فور رؤيتنا، وأخبرنا أنّنا سننطلق قبل الوقت المحدّد لأنّ السائق سيوصل أختي عادل إلى الثانوية، ثمّ خاطبني:

- أخبرني عادل أنّك من الأوائل في القسم، وأنّك صديقه، فهو لا يكفّ عن ذكرك، لهذا طلبت منه أن يدعوك لتناول الغذاء معنا تكريما لك، وافتخارا بما تقوم به، اهتمّ بدراستك، وإن احتجت أيّ شيء لا تتردد فقط أخبر عادلا.

مطأطأ الرأس كنت أنصت. كلماته حرّكت شعورا غريبا بداخلي، لم أعهده من قبل، أردت أن أقبّل يده فسحبها هذه المرة قبل أن أمسكها، أمّا والدته، فقد انحنت عليّ وضمتني، ثمّ طبعت قبلة وداع على خدي.

حملنا محفظتينا، واتّجهنا إلى سيّارة اللاند روفر، ركبنا في الخلف أنا وعادل، فيما ركبت أختاه قرب السائق الذي انطلق بنا نحو الثانويّة. ترى ما الثانويّة؟؟ لم أسمع بها من قبل، وانتظرت لأرى بأم عيني.

عدد كبير من الشبّان والشابّات يحملون كتبا ودفاتر، قرأت المكتوب على اللافتة "ثانوية الحسن الثاني"، جلست في مكاني أحملق

في منظر غريب عليّ، صخبهم يُسمع من بعيد. ترجّلت أختا عادل، ودّعتانا، وذابتا في كومة من طلبة الثانوية .

أخذتنا السيّارة إلى مدرستنا، ثمّ عادت بعد انتهاء حصّة المساء، وصلت بيتنا يسحبني السائق من يدي، طرق الباب، أطلّت والدتي فبادرها:

- ها هو ابنكم، القائد يشكركم.

وأفلت يدي، لوّحت لعادل، وقبّلت والدتي وكلّي فرح، كنت متلهّفا لأحكي لهم كل ما حدث، ولألعب بسيارتي.

قرار

اعتدنا أن نحضر إلى المدرسة حاملين قلما وورقة فقط بداية كلّ سنة دراسيّة جديدة، نتعرف معلّمينا، نسجّل لوازم الدراسة كي نسلّمها لأسرنا الّتي تشتريها لنا، غالبيّة الكتب نستعيرها من الجيران أو أفراد العائلة.

وقفت في الصفّ مع زملائي، أدخلتنا معلّمتنا، جلسنا في أماكننا، واخترت طاولة في الخلف مع الفاشلين، أخرجت المعلّمة لائحة، وبدأتْ تنادينا، وهي تحملق في وجوهنا محاولة ربط أسمائنا بصورنا كي يسهل عليها تذكر أسمائنا.

نهضتْ من مكانها وملأت جزءا من السبّورة بلائحة اللوازم المدرسية، فشرعنا ننقلها إلى أوراقنا. سكون تام، الكلّ منهمك، لا تُسمَع إلا طقطقات الأقلام على الطاولات حين نضع النقط على الحروف.

فجأة!! دخل المدير يرافقه شخص غريب، تحدّثا مع المعلّمة، ثمّ غادرا على عجل، كنّا منشغلين بالكتابة. فسمعنا معلّمتنا تأمرنا بالتوقّف والانتباه، لأنّ ما ستقوله هامّ ومصيريّ بالنسبة للبعض، وبدأت بالتلاميذ الجالسين في الخلف، وكنت منهم، أمرتنا بالقيام والاستعداد لمغادرة حجرة الدرس، أطعنا أمرها والحيرة تملؤنا، ما الّذي فعلناه؟؟ بالكاد تعرفنا!!

- لقد تمّ بناء مدرسة جديدة: مدرسة الدشيرة، وهي ليست بعيدة من هنا، وقد تمّ اختيار تلاميذ من المدارس الثلاث الموجودة في الحيّ لإتمّام دراستهم بها، والشخص الّذي حضر مع المدير سيأخذكم إليها فهو يعمل هناك.

نزل عليّ الخبر كالصاعقة، لم أستوعبه. حاولت المعلّمة التخلّص من الفاشلين، لذلك اختارت جميع الجالسين في الخلف، كما أضافت بعض التلاميذ الّذين نخر الفقر أجسادهم، فوقفوا إلى جانبنا بثيابهم البالية المزركشة بالرقع، وأجسامهم النحيلة المتّسخة.

رغم أنّ القرار لم يعجبني، فقد امتثلت له، واستعددت للمغادرة، وكلّي يقين أن أسرتي لن تتقبّله. بكى بعض الواقفين، فيما احتجّ آخرون، لكنّ ذلك لم يدفع المعلّمة لتغيير قرارها.

الحمد لله. دائما ما أجد من يدافع عنّي، حين أعجز عن ذلك، لا أذكر من أخبرها أنّ لي أخا يدرس بالمستوى الخامس، لكنّه أراحني من عناء خوض تجربة جديدة.

- هل هذا صحيح؟؟

- **نعم أستاذة.**
- **عد إلى مكانك!**

عدت للجلوس، وهذه المرّة تجنّبت الطاولات الخلفيّة، وقبل أن أكمل نقل اللائحة، رأيت زملاءنا يغادرون القسم، ثمّ يتجمّعون مع غيرهم في الساحة، ويختفون فور تجاوزهم باب المدرسة المقابل لحجرة الدرس.

أصبح عددنا قليلا، ولكنّ ذلك لن يدوم، فقد كانت الأسرة الصغيرة في هذه المدينة تضم خمسة أطفال على الأقلّ، وذلك راجع إلى أنّ غالبيّة الوافدين على هذه المدينة هم في الأصل من سكّان القرى والبوادي المغربيّة، كما أنّ أبناء المنطقة لم يألفوا الاستقرار بعد، وتغلب عليهم عقليّة الرّحّل بطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم.

الأوّل

السنة الثالثة في المدرسة، أصبحت تدرّسني معلّمتان، تبدوّان على وفاق وانسجام، دائما متأنّقتين، عطر فوّاح، وملابس عصرية محتشمة، كلتاهما تنبذان العنف، فلا ضرب، ولا شتمّ، ولا إهانة. جاءنا مدير جديد وابنه معي في نفس القسم، عادل لم يعد يشاركني نفس المقعد، ما بيدنا حيلة، فالمعلّمتان معا اختارتا أن نختلط، كل صبي يجلس قرب صبية، مع استثناءات، في البداية احتجّت الإناث، بدعوى أن الذكور مزعجون، وغير منضبطين، واتكاليون، وأن تحصيلهن سيتأثّر سلبا، لكنّ ذلك لم يغيّر من الأمر شيئا، حتّى المدلّلون منّا لم يستطع آباؤهم فعل شيء، فقد كانت حجّة المعلّمتين مقنعة.

عند معلّمة العربية كانت بجانبي حسناء، ابنة ربان، والدها قليل الحضور، فكانت متأثرة على ما يبدو بوالدتها، دائما أنيقة، نادرا ما لا

تضع أحمر الشفاه، ولم يكن جلوسها بجانبي مجانيّا، كان لديها ضعف في النحو، وكنت متفوقا فيه، وتقتضي خطّة المعلّمة ـ التعلّم بالقرين ـ أن نتبادل التجارب، كوننا أقرانا، ويستفيد كلّ منّا من قرينه. لم تنجح هذه الخطة مع حسناء، فقد كانت مغرورة ومتكبرة، لا ترضى أن يعلّمها أحد فما بالك بفتى فقير، حاولت مرارا تجاذب أطراف الحديث معها، وكانت تصدّني، فقررت ألّا أزعجها بعد ذلك.

أمّا عند معلّمة الفرنسيّة، فالأمر مختلف تماما، كان بيني وبين جليستي توازن، كنت ضعيفا في اللغة الفرنسيّة ومتفوّقا في الرياضيّات، وكانت عكسي تمّاما، كما أنّها كانت مختلفة عن حسناء.

منى ابنة ملازم في الجيش، خجولة وعفوية، قليلة الكلام، لكنّها لا تتردّد في استفساري إن لم تفهم تمّرينا، تشاركني أدواتها، بل كانت أحيانا تهديني قلما أو مسطرة... كعربون شكر، وكنت أقبل على مضض مخافة أن أسبّب لها مشاكل مع والدها، أو أن يتمّ اتهامّي بالسرقة، بينما كانت تلحّ أو تدسّ هديتها في محفظتي.

أجمل شيء كانت تقوم به منى هو إهدائي ورقة بيضاء كلّ يوم، كنت أحبّ الرسم وكنت في المقابل أبحث عمّا أهديه لها في المقابل ومن حسن حظي أنّني حصلت على هديّة من جارنا الموظف مقابل مساعداتي له، مذكّرة بغلاف جلدي، فيها خريطة العالم بأسماء القارات والدول وعواصمها وباللغتين العربية والفرنسيّة وفيها أيضا خريطة المغرب، كانت بمثابة كنز لي، ورغم أنّني كنت أنوي الاحتفاظ بها إلّا أنّ تصرّف منى دفعني إلى تغيير فكرتي، وإهدائها أوّل مفكرة أحصل عليها في حياتي.

بدأت أحبّ منى، وأي حبّ هذا؟؟!! كنت أسرع إلى المدرسة فقط لرؤيتها، وبما أنّها تسكن في الحي القريب من حينا، كنت أذهب لأمرّ قرب بيتها لعلّني ألمحها، وغالبا لا أحظى بمرادي فأعود إلى البيت

خائبا، وإن وجدتها تلعب في حديقتهم، أو تطلّ من النافذة، كنت أمشي الخيلاء كطاوس مزهو بنفسه، لعلّها تلاحظ وجودي، دأبت على فعل ذلك مرارا، إلى أن ينست، واكتفيت بلقاءاتنا في المدرسة.

لم أجرؤ يوما على مصارحتها، كنت خائفا، وما جعلني أحتفظ بهذا الحب لنفسي، وأن أنساه، هو ما تعرّض له نبيل الذي عبّر لنجاة عن حبّه في ورقة صغيرة، ودسّها في كتابها، وعندما عادت إلى البيت، وجدها والدها، وفي اليوم الموالي حضر إلى المدرسة غاضبا، أرعد وأزبد، ولم ينج أحد من تقريعه وسبّه، بدأ بالمدير ثمّ المعلّمتين ونبيل، كيف لا وهو مفتش شرطة، أمّا بنبيل، فلم يكمل عامه معنا، وتمّ نقله لمدرسة قريبة من مدرستنا.

درس

علاقتي بعادل بدأت تذبل، وأصبح له رفقاء جدد، بعضهم من أبناء الضباط، ويقطنون بحيّه، ممّا كان سببا في عودتي إلى البيت راجلا، وفي آخر مرّة، كنت غبيّا لدرجة كبيرة، كدت أتسبب لنفسي في كارثة حقيقيّة.

دقّ الجرس معلنا انتهاء حصّة المساء، سبقني عادل إلى السيارة، وعندما وصلت، لم ينتبه، أما السائق، فقد نهاني عن الركوب، رفضت الاستمّاع إليه، فأمسكت بمقبض الباب الخلفي، لكنّ السائق انطلق مسرعا غير آبه بحشود التلاميذ الّتي تمّلأ الشارع، لم أستسلم، وبدأت أركض بسرعة آملا أن يخفّف السرعة عند المنعطف، لعلّني أستطيع تحرير نفسي من هذه الورطة، بدأ الألم يطرق أبواب قدميّ الحافيتين، لم أنتبه إلى نعليّ، ولا أعرف كيف فقدتهما. أراد السائق أن يلقّنني

درسا، فلفّ دون أن ينقص من سرعة السيارة الّتي مالت بشكل مجنون نحو اليسار، أطلقت مقبضها، واستمّررت في الركض لكن خطواتي كانت صغيرة، وسرعتي ضعيفة، فوقعت على الاسفلت، وانزلقت لمسافة طويلة، من حسن حظّي أن رأسي لم يصطدم بالأرض، لكنّ يديّ وصدري، نالا نصيبهما، وكذلك ملابسي التي تمّزقت بفعل الاحتكاك بالاسفلت، لم تمْهلني سيّارة قادمة بسرعة من الخلف، وبوقها العالي جعل الجميع ينتبه إليّ، استجمعت قواي بسرعة، وركضت إلى الرصيف القريب، رفعت يديّ أتفدهما، بشرتي قُشرت، ركبتيّ، صدري، ألم شديد، أصبح التنفس عذابا مؤلما.

عدت أدراجي باحثا عن نعليّ.، حملتهما، كنت مصدوما، لم أكلّم أحدا، حتى الكبار الذين جاؤوا ليطمئنوا عليّ لم أجبهم، وبدأت أفكّر كيف أبرر لأسرتي كلّ هذا.

منذ هذه الحادثة، صرت أعود راجلا إلى البيت، وفي المرّات القلائل التي دعاني فيها عادل كي أرافقه كنت أرفض، واعتدت في طريق عودتي إلى البيت ألّا أستعمل الرصيف، إذ كنت أسير بمحاذاة السيّارات وألمسها كثيرا، لا أعلم ما الّذي سعيت إلى إظهاره بهذا التصرّف.

يوم جديد، توجهت إلى المدرسة، جلست في مكاني أنتظر بدء الدرس، ولم أكن أعلم أنّ معلّمتي ستختار تصرّفي كموضوع له، وبدل اللغة الفرنسيّة، ارتأت أن تقدمه بلغة الضاد، بدأت بالحديث عن الأخطار المحيطة بنا، ثمّ أشركتنا، فذكرنا كلّ ما نعرفه، هنا تدخّلت وسألتني:

- هناك خطر آخر لم تذكره؟؟ هل عرفته؟؟
- لا!!!
- هل منكم من يعرف خطرا يهدّد عليا على الدوام؟؟؟

لا جواب، إن كان عليّ نفسه لا يعرفه كيف لنا أن نعرفه؟؟!!

جميل صرت موضوعا للدرس، هذا ما كان ينقصني، سيصل الخبر إلى والدي.

- علي مستهتر، فهو يترك الرصيف المخصّص للراجلين، ويسير بمحاذاة السيارات والشاحنات، بل إنّه يلمسها بيده، مشكلته أنه لا يهدّد حياته فقط بل يهدد حياة السائقين أيضا. عليكم ألّا تكونوا مثل علي، وتجنبوا اللعب في الشارع، وأنت يا علي إن عدت لمثل هذا التصرف سيكون لي معك شأن آخر.

أكرهك معلّمتي، ومن اليوم لن أجيب عن أسئلتك، ولن أشارك في دروسك ولتذهبي للجحيم. كان هذا قراري، وكان له أثر سلبيّ على تعلّمي، وصرت بعده تلميذا عاديا، بل فاشلا في اللغة الفرنسيّة.

هلوسة

لم أستطع البلع، أصبت بالتهاب اللوزتين، مرض لازمني منذ الصغر، لكنه يزداد حدّة كلّ سنة، اكتفيت بكؤوس الشاي، ثمّ انتظرت موعد الخروج إلى المدرسة.

انطلقت بخطى وئيدة، أسحب قدميّ بعناء، المحفظة على ظهري ثقيلة، لم أحسّ بثقلها إلّا اليوم. وصلت المدرسة بمشقّة، ليس مسموحا لي بالتغيب، إن كنت سأموت فعليّ أن أموت داخل حجرة الدرس، بين الطاولات، مع الدفاتر والأقلام والسبّورة، عليّ أن أكون شهيد العلم .

مع اقتراب حصّة اليوم من نهايتها، بدأت حالي تسوء، مفاصلي تؤلمني، والحمرة تعلو وجهي معلنة وصول الحمى، طنين في أذنيّ، والقشعريرة تدغدغني وتفرّ قبل أن تعاود الكرّة، دقّ الجرس وقد بلغت أقصى ما يمكن أن أتحمّله، صداع رهيب، سكاكين تمزّق مخّي.

وصلت البيت منهكا، من حسن حظّي أنّ باب البيت كان مفتوحا، قدماي لم تعودا قادرتين على حملي، دفعت الباب ودخلت، رميت المحفظة، واستلقيت على أقرب فراش، وغططت في نوم عميق.

استيقظت عصرا أشكو بردا شديدا، وأطلب أن يغطّوني، كانت أمّي جالسة عند رأسي، غطاء واحد لا يكفي يا أمّي، ولا حتى غطاءان. ناولتني كأس الدواء، شربته، وعدت إلى النوم بعد أن أحسست بالدفء يغزو جسدي.

فتحت عيني، وجدتني في غرفة لم أرها من قبل، وضوء ساطع مسلط على وجهي، حاولت صدّه بيدي، لكنّها كانت شفّافة، هه!! يدي من زجاج، بدأت الكلل تتساقط من السقف، وتحدث صوتا عذبا وهي تضرب الأرض وتعاود مرّات ومرّات قبل أن تتوقّف، وجه من هذا الّذي يحدّق فيّ، ملامحه غريبة، اقتربت أمّي وسط هذه الفوضى، نظرت إليها وابتسمت قائلا:

- ما هذا الفستان الجميل الّذي ترتدينه؟؟ متى اشتراه لك أبي؟؟؟

لم تجبني، حملتني، وأسرعت بي إلى المشفى، هناك وضعت رأسي على فخذها في انتظار دورنا، ورحت أنظر إلى هذه المخلوقات وهذا المكان العجيب وأنا أرتجف من شدّة البرد.

نادتنا الممرّضة، لقد وصل دوري. أجلسني الطبيب على السرير، وضع سماعته على صدري، كنت أرى شفتيه تتحرّكان، لكنّني لم أسمع شيئا، فرُحت أضحك منه بجنون، كيف لطبيب لم يعالج نفسه أن يعالجني؟؟؟ مدّ قطعة خشبية نحو فمي ففتحته، ضغط على لساني، وراح يتأمّل سبب عذابي، تحدّث مع الممرضة، ورأيتها تهزّ رأسها وتهرول مسرعة إلى الخارج، فعرفت حينها أنّني فقدت السمع، عادت بسرعة، تحمل شيئا في يدها، أنزلت سروالي، ووضعتني على فخذها، ثمّ دسّته،

قطعة معدن بارد، انزعجت لكنّ إحساسي بدفء فخديها وتعبي منعاني من التحرّك، أخرجَت المحرار، ورفعته لتقرأ الإشارة، بدت الدهشة على وجهها، تفاجأ الطبيب عندما أخبرته، ولم يصدّقها، فناولته المحرار ليتأكّد، يبدو الأمر خطيرا، رأيته يتحدّث بسرعة ويهز ذراعيه وهو يشرح لها ما يجب أن تقوم به، وبالفعل حملتني إلى غرفة العلاج، وهناك فتحت علبة، وأخرجت منها قنينتين، الأولى بها سائل كالماء، والثانية فيها مسحوق كالدقيق، أخرجت حقنة، أمسكتها بفكها، كسرت زجاجة السائل وسحبته بالمحقنة، ثمّ حقنت به زجاجة المسحوق، وأخذت ترجّها بقوّة، سحبت المحلول بالمحقنة، أنزلت سروالي مرّة ثانية، مسحت وركي بسائل بارد، أحسست بخدر فيه، فعرفت أنّ الإبرة غُرست، رفعت سروالي، وسلّمتني لوالدتي، طالبة منها أن تحضرني للمشفى خمسة أيام متتالية.

عادت بي أمّي إلى البيت. وضعتني في فراشي، فاستسلمت لنوم عميق.

استيقظت ظهرا في اليوم الموالي، فرُحت أبكي لأنّني فوّتت موعد المدرسة، طمأنتني، وأخبرتني أنّني في عطلة لثلاثة أيّام بسبب المرض، مرض لم يعد ينفع معه إلّا حقن البنسيلين.

بلال

صار مع المدير شخص أنيق المظهر، في البداية كنت أجده في الإدارة حين ترسلني معلّمتي لإحضار الطباشير، أو لإيصال طلب ... وكان هو من يتواصل معي، أما المدير فلم يستقبلني مباشرة قطّ، كان من أبناء المنطقة.

السيد العثمّاني الّذي تبيّن فيما بعد أنّه معلم بدون قسم، عمل مساعدا للمدير في انتظار إيجاد قسم له، وهو شيء صعب، فمدرستنا صغيرة مقارنة بالمدارس الثلاث الأخرى الموجودة في نفس الحي، ولا تفصل بينها إلا بضع دقائق من المشي.

كنّا مرة في حصّة اللغة العربية، فسمعنا طرقا على الباب، فاتجهت أنظارنا نحوه بفضول.

ـ تفضّل. قالت المعلّمة

دخل العثمّاني يتبعه طفل كبير الجثة، تبدو عليه علامات الخجل، لا يكاد يرفع رأسه حتى يطأطئه مسرعا، جبينه يتصبب عرقا، يداه ترتجفان وتدوران وكأن هناك مخلوقا خفيا يلويهما، ترتسم على وجهه ابتسامة وسرعان ما يكتسحه وجوم غريب.

تحدّث العثمّاني مع المعلّمة، ثمّ غادر، اتّجهت نحو الطفل، أمسكته من ذراعه، وخاطبتنا:

ـ هذا زميلكم الجديد بلال، إنه أصمّ، ولذلك لا يتقن الكلام، إن أخطأ فلا تستهزؤوا به، وساعدوه قدر المستطاع، فهو يتيم، ووحيد أمه.

أخذته إلى مكانه، وأخرجت كرّاسة الدرس اللغوي والدفتر من محفظته، وضّحت له المطلوب منه، ثمّ عادت إلى مكتبها طالبة منّا أن نسرع في إنجاز تمّارينا، وهو شيء صعب مع وجود ضيف جديد، كنا نلتفت إليه، لأوّل مرّة أقابل شخصا أصمّ، كما أنّ كونه يتيما حرّك مشاعر الشفقة والرحمة في قلبي، فحكايات والدتي، وحديثها عن أجر الإحسان إلى اليتيم آتت أكلها. كنا نتلهّف لفترة الاستراحة كي نتعرف عليه أكثر، ونتقرب منه.

أصبح بلال يجلس بجانبي عند معلمة اللغة الفرنسيّة، الطاولة ما قبل الأخيرة من الصف الأوسط، تخلّصت منّي منى، أو أنا من تخلّصت منها، أنا الآن أجلس مع الفاشلين المنبوذين، ولتحفيز التلاميذ كانت المعلّمة تحذّرهم أن يصبحوا مثلنا. أتاحت لي هذه التجربة أن أتعرّف أكثر على هذا النوع من التلاميذ، أطفال صغار يعانون مشاكل أثّرت على تحصيلهم، وبدل مدّ يد العون لهم تمّ إقصاؤهم، وحرمانهم أكثر، أطفال أذكياء حكم عليهم بالغباء ولا سبيل لهم لدفع التهمة عنهم، يذوقون ألوانا من التعذيب النفسيّ والجسديّ، ورغم ذلك لا مفرّ لهم من المدرسة، ولكن يحدث أن يضغط عليهم المعلّمون أكثر من طاقتهم،

فيغادرون أسوار المدرسة نحو المجهول، وهو ما حدث لبلال، رغم حالته الجسدية والاجتمّاعية كانت معلّمة الفرنسيّة قاسية معه، فمعاناتها من ضعفنا في مادتها بادية عليها، كان قدوم بلال – التلميذ المشكلة – هو القشّة التي قصمت ظهر البعير، هنا ظهر جانبها السيّء، ربّما كانت لديها نية مبيّتة للتخلص منه، فمنذ قدومه تغيّرت كثيرا، وأصبحت أكثر عصبيّة، وصارت تشتمّنا لأتفه الأسباب، وفي أحد الأيام فاجأتنا باختبار على الألواح في جدول الضرب، كنت أجيب بسرعة وأترك لوحتي أمام بلال لعلّه ينقل الجواب الصحيح منها، لكنّه كان بطيئا وعليه أن ينظر إلى المعلّمة كي يعرف المطلوب. كانت جميع أجوبته خاطئة، أنهينا الاختبار، ووضعنا الألواح في المحافظ، فطلبت من بلال أن يقوم إلى السبّورة، ذهبت إلى مكتبها حملت ملفّا فارغا من الورق المقوى وقلما، ورسمت عليه، قصّت رسمها، ثمّ صنعت منه تاجا له أذنان طويلتان، وكتبت عليه: "أنا حمار "، وضعته على رأس بلال، وربطت حبلا على عنقه، ثمّ طلبت من حسن؛ التلميذ المتفوق؛ أن يركب على ظهره، وسحبت الحبل تجرّه بين الصفوف، ضحك أغلب التلاميذ، سحبته خارج حجرة الدرس لتعرضه على باقي تلاميذ القاعات الأخرى.

أمّا بلال فتسربت دموع من عينيه، لم نسمع صراخه ولا بكاءه، ولم نره بعد ذلك اليوم في المدرسة، وزاد كرهي للمعلّمة وللغة الفرنسيّة.

لعبتي

أحبّ مشاهدة التلفاز، لا أفرق بين برامج الأطفال والكبار، هذا الصندوق العجيب يسحرني، وعندما أشاهده أندمج بحيث لا أسمع من حولي، ولا أحسّ بهم، إلّا أنّ تعلّقي بالتلفاز لم يكن ليطغى على رغبتي في اللعب. أبناء الفقراء مثلي كانوا يصنعون ألعابهم، كانوا يعرفون ما يسمّى الآن إعادة التدوير، وكانوا يمارسونه. وقلّما نحصل على لعب مصنوعة، في مناسبات نادرة، أو من ضيف واع .

في بداية السنة، وقبل أن تتغيّر نظرتي لمعلّمة اللغة الفرنسيّة، وتتغيّر أيضا معاملتها لنا، كانت قد طلبت منّا أن يحضر كلّ واحد، شيئا من منزله: لعبة، مذياع غير مرغوب فيه، آنية لم تعد تستعمل، أي شيء يصلح لأنّ تمّلأ به جانبا من الخزانة عُلّقت عليه ورقة مكتوب فيها متحف القسم، عدت إلى البيت متحمّسا، بحثت في أغراضي عن شيء

يمكن أن يفيد، شيء مميز لا يمكن أن يحضر أحد التلاميذ مثيلا له، كنت أملك لعبة عبارة عن رجل حديدي، يمكن تحريك أطرافه ورأسه، كنت أحبّه كثيرا، فهو يشبه بطل سلسلة الرسوم المتحرّكة آنئذ، والّذي يحارب الغزاة الّذين استطاعوا استنساخ الدينصورات والتحكّم فيها لغزو الأرض، كان منقذا للبشريّة. قرّرت أن أعيره للمعلمة، نعم إنّها إعارة، ستضعه في المتحف وتستعمله عند الضرورة ثمّ سأستعيده في نهاية السنة الدراسيّة، وإلّا فما دور تلك اللائحة التي دُوّنَت فيها أسماؤنا وما أحضرناه.

كانت دميتي مفيدة نوعا ما استعملتها المعلّمة عدة مرّات: مرّة لتعطينا أسماء أعضاء الجسم، ومرّات لتشرح لنا فعلا استعصى فهمه. كنت فخورا بها وبنفسي.

في إحدى الحصص طلبت مني المعلّمة أن أقرأ، هه، كنت أستغرق في كل مقطع قرابة الدقيقة، وفي الأخير يخبرني زملائي ساخرين أنّني أخطأت، لم تؤثّر فيّ سخريتهم، فهذا اختياري وقراري، لا أريد تعلّم الفرنسيّة، ظلّت المعلّمة صابرة وأنا أعذب لغة موليير، لكنّ صبرها نفذ، فنلت حصّة من الشتمّ والتقريع، لست غبيّا معلّمتي، أنا عنيد فقط، ولماذا لم تسألي نفسك عن تفوّقي في الرياضيات، الغبيّ لا يتقن علم الحساب!!!

زاد كرهي للمعلّمة وللغتها، وندمت على إعارتها لعبتي، فكرت مرارا أن أسرقها خلسة من الخزانة، وليتني فعلت، لأنّني لم أسترجعها منها، ففقدتها وفقدت معها ثقتي ببعض المعلّمين.

أسماء

عنادي سبب مشاكلي، السنة الرابعة، فاتني أقراني كثيرا في تعلّم اللغة الفرنسيّة، ولا زلت مصرّا على الامتناع عن هضمها، معلّمة جديدة صارمة، بجلبابها الأخضر ومنديل يغطي شعرها، عكس باقي المعلّمات كانت متحجبة، تعمل بجدّ وحبّ لما تقوم به. كنت أفهم دروس النحو والصرف والإملاء، لكنّني أجد صعوبة في كلّ ما هو شفهيّ، تعبيرا وقراءة، في البداية كان مكاني مع الفاشلين، وبعد ذلك صرت وسط الصف أي أنّ مستواي متوسط، جلوسي في الخلف يتيح لي ملاحظة كلّ شيء، تصرّفات المعلّمة وردود فعل الأطفال، أطفال تمّ تحويلهم تدريجيا إلى وشاة متملّقين من الدرجة الأولى، كي تتقرّب من المعلّمين يكفي فقط أن تشي بزميل، وكلّما كثرت وشاياتك كلّما ازداد قربك، وزادت معه ثقة المعلّمين فيك، وإن كنت متفوقا فستصبح رئيس القسم، افعل ما يحلو لك ولن يجادل أحد.

أسماء بنت ضابط في الجيش، تسكن قرب عادل، كانت واشية بامتياز، استطاعت معلّمتنا أن تحوّلها إلى جاسوسة خاصّة، بل زوّدتها بدفتر خاص، كي تؤدي مهامّها على أكمل وجه، في الدفتر صفحة لكلّ تلميذ إلّا أسماء، في الأعلى اسم التلميذ، والباقي هو ملاحظات أسماء، الواجبات الّتي لم يتمّ تسليمها، الدروس التي لم يتمّ حفظها، عدد المرّات التي أزعج فيها زملاءه حين تغيب المعلّمة لأداء صلاة العصر، اعتداءاته على زملائه في قاعة الدرس أو خارج المدرسة، الكلمات النابية الّتي تفوّه بها ...

قد تلتصق بك تهمة فقط لأنّ أسماء منزعجة منك، ولا سبيل لك لدفعها ولو شهد التلاميذ كلّهم لصالحك، فالمعلّمة تثق بها ثقة عمياء .

تعلّمنا المعنى الحقيقي للظلم والجبروت، وبدأ الحقد يعرف طريقه لقلوبنا الفتيّة، وتعلّمنا أيضا فنّ النفاق، فالفتيات يلعبن مع أسماء فقط لتجنّب شرّها، وأصبحت تحصل على الهدايا من أغلب التلاميذ، هذا يهديها قصة، وذاك قلما، وتلك علبة علكة ...

في البداية أُعجبت بأسماء فتحول إعجابي إلى شفقة، فالمسكينة لم تختر أن تكون واشية، والذنب كلّ الذنب لمن جعلها كذلك، ربما أبواها، وربما معلّموها السابقون، ومعلّمتي لها حصّة الأسد فقد رسّخت لديها سلوكا بوليسيا بامتياز.

عمّار

- مرحبا بكم أبنائي، أنا معلّمكم الجديد عمّار، سيقوم كلّ واحد منكم إلى السبّورة ليقدم لنا نفسه.

هكذا افتتح معلّمنا أول حصّة، متوسّط الطول، أبيض البشرة، بشارب خفيف ولحية، يرتدي ملابس عصرية، غالبا سروالا وقميصا، مع وزرة بيضاء لا يفارقها إلّا يوم الجمعة، حين يرتدي الجلباب التقليديّ المغربيّ.

يبدو أننا سندرس عند معلّمين مشبعين بالفكر الديني، الّذي بدأ يغزو العالم العربي، لكنّهما مختلفين تمّاما، كلاهما جادّان في عملهما، لكنّ المعلّم عمارا يختلف كلّيّا عن معلّمة اللغة الفرنسيّة، تشبّعه بالفكر السلفيّ انعكس إيجابا على معاملاته، فكان طيبا حنونا، يرى أنّ اللين

هو السبيل الأمثل لتلقين الأطفال، وكان يرفض الوشاية، بل حذرنا منها، كنّا سواسية أمامه، الفقير والغنيّ، الذكر والأنثى، المتفوّق والفاشل.... لا أحد منّا يحظى بمعاملة خاصة، لم نسمع منه قطّ سبّا ولا شتيمة، حالة واحدة تستدعي منه عقابنا: إحداث الضوضاء. أهمّ شيء كنّا نتمتّع به في حصّته هو اختيار أماكن الجلوس، ارتحنا من تصنيفنا حسب مستوياتنا، في قسمه تجد المتفوّق في آخر الصف، والفاشل قرب السبّورة، وهو الوحيد الّذي سمح لنا بالاقتراب من المكتب ولو كان ذلك من باب الفضول فقط، نعم إنها الحرية يا ناس!!!

كلّ هذا ألهب فينا الحماس ودفعنا إلى الرغبة في إرضائه بكدّنا واجتهادنا، وكنّا نتنافس في ذلك تنافسا شديدا، معه سأعشق القراءة، وبدأ حبّي للكتب، قرأت قصصا كثيرة: المغامرون الخمس، وكليلة ودمنة، وحي ابن يقظان، وغيرها كثير، كما أنّني شرعت في تصفّح الجرائد والمجلات، وعكس المعلّمة، كان يؤدّي صلاة العصر في حجرة الدرس، ومعه تعلّمنا احترام الأذان فقد كان يصمت فور سماعه، في البداية لم نعرف سبب صمته، وعندما سألناه لم يجب اكتفى بالقول إنّنا سنكتشف الأمر لوحدنا لأنّنا أذكياء، وفعلا اكتشفناه دون مساعدة.

- إنه وقت الاستراحة، وكما تعلمون فمنذ الحادثة صرتمّ ممنوعين من الخروج إلى الساحة، لن أحرمكم من حقّكم شريطة تجنّب الفوضى.

غيرت الحادثة مجموعة من الأمور، لكنّها لم تغيّر معلّمنا، استغلّت معلّمتنا فترة الاستراحة لمزيد من التمّارين والواجبات، في حين كنّا عند المعلّم عمّار نخرج لدورات المياه، نأكل ما أحضرناه من طعام أو حلويات، دعانا مرّة للصلاة معه، تسابق التلاميذ لأخذ أماكنهم في الصفّ، وجدها البعض فرصة للتملّق، والبعض الآخر استغلّ الأمر للخروج من حجرة الدرس، كنّا ثلاثة تلاميذ لم نتحرّك من مكاننا.

- ألن تصلّوا معنا؟
- لا يا أستاذ. كان جوابنا
- لكم حرية فعل ما تشاؤون، وأحبّ أن تقرؤوا، خذوا من الخزانة ما تشاؤون، ولا تضيّعوا الوقت في التفاهات.

انغماسي في القراءة كان ينسيني كل شيء، ولا أنتبه إلا حين يلمسني أحد الزملاء لينبّهني لانتهاء استراحة أحببت أن تطول مدّتها، صارت هذه عادتي في القسم، ومعلّمنا لم يبخل علينا، بالعكس فقد كان كريما، اقتنى مجموعة جديدة من المجلات والقصص لإغناء مكتبة القسم، وكنّا مثل النار كلّما زاد حطبها اتقدت وطلبت المزيد.

سألت معلّمي مرّة إن كان بإمكاني استعارة كتاب بدل قراءته في فترة الاستراحة، كي أتمّكن من الصلاة خلفه، فوافق شريطة ألّا يقضي معي أكثر من ليلة واحدة، في البداية وجدت صعوبة في إنهاء قراءة ما استعرته من كتب في ليلة واحدة، خاصة مع كثرة واجبات اللغة الفرنسيّة، لكنّني صرت لا أترك الكتاب حتى أنهيه ولو اقتضى الأمر الحرمان من النوم في سبيل ذلك، فاعتدت السهر والنوم لسويعات، صارت الكتب أصدقائي، تؤنسني وتسلّيني تجعلني أضحك وأبكي ...

بفضل معلّمنا قلّتْ شجاراتنا، وصرنا نحلّ خلافاتنا بالحوار، ونتقبّل اختلافاتنا، تغيّر سلوكنا كثيرا، كنا نرى فيه قدوة، وكان ينصحنا بالاقتداء بالنبي ﷺ، فبدأنا بالنبش في سيرة خير الأنّام ننهل منها ونستفيد.

عقاب

وهبني الله ملكة الحفظ، يكفي أن أسمع شيئا سبع مرات لأحفظه: قرآن كريم، نشيد، درس الصرف ... أيّ شيء، وأجد صعوبة في محوه من ذاكرتي، وهو ما يتكفّل به الزمن، فسورة الملك أحفظها إلى يومنا هذا، منذ أن حفظتها في المستوى الثالث، لذلك لم أجد صعوبة في حفظ دروس الصرف باللغة الفرنسيّة، بل كنت أحفظها حتّى قبل مغادرتي حجرة الدرس، وأكتفي في البيت بالتدرّب على طريقة كتابة كلّ فعل.

معلّمتنا لا تتساهل معنا فيما يخصّ دروس الصرف، وأسماء تسجّل عدد الأخطاء الّتي ارتكبها كلّ تلميذ، خمسة أخطاء تعني عقوبة "الفلقة"، حيث يتلقى المُعاقَب عشر ضربات على قدميه بدل يديه.

عاليّين صديقي، ويقطن بنفس الحي الّذي أسكن فيه، ارتكب مرّة

ثلاثة أخطاء، لكنّ أسماء ارتأت أن تدرجه ضمن اللائحة السوداء، فهي لا تطيقه، ولست أعرف سببا لكرهها له، سألتها المعلّمة عن المحظوظين الذين سينالون "الفلقة"، سمعت اسم صديقي فدافعت عنه، ولكن لا حياة لمن تنادي، لم تصدّقني المعلّمة، أمّا أسماء فلم تتقبّل ذلك.

في الحصّة الموالية، اتهمتني بارتكاب خطإ واحد انتقاما، صدّقتْها المعلّمة وكذّبتني، نلت عشر ضربات على يديّ، وعوقبت بضرورة كتابة جدول الفعل خمس مرّات، وهو ما رفضت القيام به، فصارت العقوبة عشر مرات، ثمّ عشرين فخمسين، استدعت المعلّمة أخي ليخبر والدي بما آل إليه وضعي، وبأنّني متقاعس عن أداء واجبي، وأنه لم يبق لها إلا عقوبة "الفلقة"، في البداية خفت أن يصل الأمر لأبي، لكنّ أخي طمأنّني:

- لا عليك، تلك المعلّمة مريضة، أنا أعرفها جيّدا، فقد كنت تلميذها السنة الماضيّة .

في الغد ومباشرة بعد حصّة الرياضيات، وقبل أن تبدأ حصّة القراءة، أخرجت أسماء دفترها وقاطعت المعلّمة:

- أستاذة؟ اليوم ستراقبين عمل عليّ، لديه عقوبة متعلقة بدرس الصرف.

- شكرا أسماء، وأنت يا علي:

- هل كتبت جدول الفعل خمسين مرّة كما طلبت منك؟؟

- لا لم أكبته

- لماذا؟؟

- بالكاد استطعت إنجاز واجبات اليوم، داهمني الوقت.

- قم إلى السبّورة وانزع حذاءك.

قمت، وجلست على الطاولة المقابلة للتلاميذ، نزعت حذائي، ثمّ أدخلت قدميّ الصغيرتين في القمطر، وانتظرت العقاب، دنت معلّمتي وفي بدها عصا غليظة:

- ما هذه الرائحة الكريهة؟؟؟ " إنه حذائي".

قالتها وشرعت في ضربي بكلّ قوّتها، أو هكذا شعرت، عشر ضربات متتالية، تجلّدت ولم أصرخ، لكنّ دموعي لم تطاوعني، لمحت البعض وقد ظهرت عليهم علامات التأثّر، كانت نظرتي مركزة على أسماء، في حين كانت تبتسم وتهز حاجبيها شامتة. نلت حصتي، فأخرجت قدميّ من القمطر، وانتعلت حذائي، بالكاد استطعت الوقوف، أما السير فكان عذابا، ألم فظيع لم يسبق لي الإحساس بمثله، ورغم ذلك ضغطت على نفسي واستطعت أن أصل إلى مكاني دون مساعدة، عكس بعض الزملاء، وهو ما اعتبرته انتصارا.

كانت هذه أوّل وآخر مرّة أعاقَب بهذه الطريقة المهينة، وازداد كرهي للغة الفرنسيّة ولمعلميها.

الحارس

الحصّة المسائية، آخر حصّة، نلتقي بتلاميذ حصّة الظهيرة، نتبادل الأحاديث، ونستعير ما ينقصنا من أدوات، وصلت إلى المدرسة قبل الوقت، وأسرعت نحو القسم، أخذت مكاني في الصف، وانتظرنا إشارة معلّمنا لندخل، رغبتي في الجلوس قرب الخزانة؛ قبل أن يستولي على مكاني أحد، دفعتني للحضور مبكّرا، حتّى التلاميذ الّذين ألفوا أن يقتنوا الحلويات والكعك المحلى قبل الدخول، تخلّوا عن عادتهم، فقد استطاعت تعاونيّة القسم أن توفر لنا ما نشتهيه، كما أنّ ذلك ساهم في زيادة مداخيلها، والّتي كانت تصرف لاقتناء القصص الجديدة أو أدوات للأيتام وأبناء الفقراء، والفضل كلّه يعود للأستاذ عمار.

بدأنا بالقراءة، فجأة !! وفي منتصف الحصّة، سمعنا صراخا وعويلا، تلته أصوات سيارات الإسعاف والإطفاء، ما الّذي حدث؟؟ تركنا

معلّمنا وخرج مهرولا، لابدّ أنه أمر جلل. احترامنا لمعلّمنا جعلنا نلتزم بأماكننا، حتّى النوافذ لم نقترب منها.

عاد معلّمنا شاحب الوجه، متقطع الأنّفاس، يحوقل ويوحّد، استفسرناه، قال:

- فيما بعد

لم نجادله، فإذا بنا نفاجأ بآبائنا وأمهاتنا وأفراد من أسرنا يحضرون ليسألوا عنّا، زوجة عمي تصيح:

- أين علي؟؟ أين أنت يا علي؟؟ أجبني.

وقفت ولوحت لها، فتنهّدت تنهيدة كبيرة، حتى خيّل إليّ أنها كتمّت أنفاسها من البيت إلى أن رأتني، ركعتْ وتنفست بعمق، ثمّ رفعت رأسها، وخاطبتني:

- إذا خرجت من المدرسة فاحضر لبيت عمّك، لا تذهب إلى البيت، والدتك وإخوتك معنا. هل سمعتني.
- أومأت برأسي دلالة الإيجاب.

لابدّ أنّه أمر جلل هذا الّذي حدث. لم يخبرنا أحد، لا المعلّم ولا أفراد أسرنا ولا المدير، حتّى الحارس الذي نعتبره بمثابة والد لنا، خذلنا هذه المرّة ولم نجده عند الباب أثناء خروجنا، وجدنا ابنته الكبرى واقفة مكانه تنتظر خروجنا لتغلق الباب، كانت عيناها متورمتان من كثرة البكاء. ماذا حدث؟؟

أسرعت إلى بيت عمّي، وهناك سيخبرني أخي بما حدث.

في مدينتنا، مياه الصنبور لا تصلح للشرب أو الطهي، لذلك تجد صهاريج على أسطح المنازل، أو على الأقل براميل صغيرة، كنّا نشتري

الماء من الشاحنات ذات الصهاريج والتي يسميها الناس "الكوبة"، كانت تجوب الأزقّة والشوارع معلنة وصولها بضجيج أبواقها، مكان تزودها بالماء لا يبعد عن مدرستنا.

ملأ السائق صهريج شاحنته، أغلقه، ثمّ انطلق ليبيع سلعته، انعطف يمينا، في المنحدر يكتشفُ أنّ الفرامل معطّلة، وألّا سبيل لإيقاف هذه الشاحنة المجنونة، وما زاد الطين بلّة كمّيّة الماء الّتي زادت من سرعة عربته، فكّر أن يرتطم بالمنزل الموجود أمامه، لكنّه خاف أن يتهدم البيت ويموت أهله، لفّ عند المنعطف يمينا، ليجد الشارع مكتظّا بالتلاميذ، أطلق بوقه منبّها إيّاهم، فظنّوا أنّه يشهر سلعته، قلّة منهم لاحظوا أن الشاحنة تسير بسرعة، فأسرعوا نحو الرصيف وأخذوا ينبهون البقيّة بصياحهم.

للأسف، صدمت الشاحنة ستّة أطفال أبرياء، والحارس ضحّى بنفسه لينقذ ابنته الصغرى وصديقتها، فقد قفز ودفعهما وخلال محاولته النجاة بنفسه أصيب في رأسه، مات الحارس والأطفال الستة.

كانت حادثة أليمة أثّرت في الجميع، ومن نتائجها حرماننا من الاستراحة لبقيّة الموسم الدراسي.

حمدي

كثرتنا سبّبت لنا مشكلا، تزايد عدد تلاميذ مدرستنا، فتغيّر استعمال الزمن، وبعدما كنا نستفيد من يومي الجمعة والأحد كعطلة أسبوعية، بقي لنا يوم الأحد وحده كمتنفس، وتغير معه التوقيت، فأصبحنا ملزمين بالحضور صباحا على الساعة الثامنة بدل السابعة والبقاء في المدرسة إلى العاشرة، موعد دخول الفوج الثاني، وتبدأ حصّة المساء على الساعة الواحدة، لتنتهي على الساعة الرابعة مساء، ويبقى الفوج الثاني إلى حدود السادسة وعشر دقائق مساء، كنا نعاني في فصل الشتاء، حيث تغيب الشمس ولمّا نغادر حجرات الدرس بعد. فكان الكبار يرافقون تلاميذ السنة الأولى متى كان موعد دخولهم قبل شروق الشمس، أو ينتظرون خروجهم بعد المغيب.

تجمّعنا عند باب المدرسة نصف ساعة قبل موعد الدخول، مجموعة هنا تحاول حفظ القرآن الكريم، وأخرى تنقل واجبا منزليّا لم يُنجز في البيت، وثالثة تلعب، باعة يعرضون حلويات وأدوات مدرسية

على عرباتهم، بعض الأمهات ينتظرن خروج فلذات أكبادهنّ من المدرسة.

سمعنا صراخا عاليا، تلته قهقهات وصيحات تلاميذ الحجرة المقابلة لباب المدرسة، باب القاعة مغلق، لا نرى ما يحدث، لكن يبدو أنّ المعلّم يعاقب تلميذا، بقيت في مكاني في الرصيف المقابل للمدرسة أراقب وأسمع كغيري، عبارات استعطاف وصراخ عال، تجمّع الحاضرون عند الباب الكبير لعلّهم يحظون برؤية ما يحدث.

فجأة!! رأينا جسما نحيلا يقفز من النافذة حافي القدمين، ممزّق الملابس، مغبرّ الشعر، ركض نحو سور المدرسة. فتح المعلّم الباب صائحا به:

- توقف! توقف! إلى أين تذهب؟؟

وتبعه تلميذان يجريان خلفه، إنّه حمدي الّذي تسلّق السور بخفّة، وقفز إلى الشارع، ثمّ ركض بأقصى سرعة، كفريسة تهرب من مفترسها، لفّ يسارا عند الزقاق القريب المؤدّي إلى منزلهم. ثار المعلّم، وأمر التلميذين بالعودة إلى القاعة، فيما اتّجه نحو الإدارة، علا الضجيج المكان، وانقسم الحشد إلى مجموعتين، أطفال صغار يسخرون من المعلّم، ويمدحون فعل حمدي، وكبار يدعون الله أن يلطف بهم ويهدي أبناءهم كي لا يصيروا مثل حمدي.

عاد المعلّم إلى تلاميذه. وما هي إلا لحظات حتى دقّ الجرس، وفُتح الباب في وجهنا، فدخلنا وخرج الفوج الآخر، لم نتمّكن من معرفة تفاصيل ما حدث.

في الغد جاءت أم حمدي تسحبه مكبّلا بحبل، تستعطف معلّمه ليقبله في القسم واعدة إيّاه أنّ ابنها لن يكرّر فعلته، فسحب الحبل من يدها وجرّ الطفل نحو الحجرة.

تكرّر الأمر ثلاثة أيّام، وفي اليوم الرابع لم نعد نرى حمدي إلّا في زقاق قرب منزلهم يقطع الطريق على التلاميذ يسلبهم أشياءهم، قبل أن يختفي وتنقطع أخباره.

شعير

السنة الخامسة هذه السنة يعزّ المرء أو يهان، قد يجتاز الامتحان ويواصل مشواره الدراسي، ويبدأ تجربة جديدة في الإعدادية، أو يرسب فيعتبره الجميع فاشلا لا يصلح لشيء، قد تفرح بك أسرتك وأهل حيّك، أو يتبرؤوا منك.

بدأنا عامنا هذا مع معلّم غريب الأطوار، يحبّ كثيرا أن يتفاخر ببطولاته ومغامراته الّتي عاشها في طفولته، وكنّا نحب أن يحكي لنا قصصه رغم علمنا أنّه يرتجلها، السندوسي كان يضع نظّارات شمسية داخل حجرة الدرس، استغربنا لتصرفه هذا، ولكنّه كان يخفي بهما عينيه حين يغط في نوم عميق في حضرتنا، كانت فترات المساء شاقّة عليه يغالب النوم ولكنّه في النهاية يستسلم له، يأمرنا أن نأخذ القراءة أو القرآن الكريم ونتناوب على القراءة، ويميل كرسيه على الجدار ويجلس

عليه واضعا قدميه على المكتب، ومتّكئا برأسه على الجدار، أحيانا تكفيه غفوة، وأحايين كثيرة يغطّ في نوم عميق لدرجة أنّنا نسمع شخيره.

لم يكمل معنا السنة الدراسية، ولم يطلعنا أحد عن السبب، هل انتقل؟ أم تمّ إعفاؤه؟ أم أنه مات.... لست أدري

جاءنا معلّم شاب، يبدو أنه حديث العهد بمهنة التدريس، لحيته الشقراء المائلة للحمرة، وبشرته الناصعة البياض تدلّان على أنه من أبناء شمال المغرب، حاول في البداية أن يكون حازما، لكنّ ضعفه أمام الإناث جعله يتغيّر ويلين، يعشق أن تحيط به الفتيات وأن تتقرّبن منه، وفي المقابل يقمع الذكور، لقد أصبح الذكر المسيطر، تعجبه كلمات المديح، خصوصا إن تفوهت بها أنثى.

كان متوسّط القامة، مترهل العضلات، حديث العهد بالتديّن.

لم نتأقلم مع طريقة عمله، فقد تأثّرنا كثيرا بطريقة المعلّم عمّار، فعاد التصنيف، وعاد العقاب، ومعه السبّ والشتمّ. يتساهل في كلّ شيء إلّا حفظ القرآن الكريم، ففي حصصه يتحول إلى صخرة صمّاء بدون مشاعر، شيء واحد سيشفع لك: أن تكون أنثى.

كنت أجلس على الطاولة الرابعة في الصفّ الأيمن، وبقربي صديقي محمد، طلب منّا المعلّم أن نأخذ كتب التربية الإسلامية ونقرأ جزءا من سورة الرحمن بالتناوب، مددت يدي إلى المحفظة، أخرجت كتابي وفتحته على الصفحة الخاصة بدرس القرآن الكريم، أردت أن أغلق محفظتي فلاحظت وجود ورقة ملفوفة تحتوي على شيء ما، فتحتها بحذر وصديقي يراقب، لقد دسّت أمّي بعضا من الشعير المحمّص في محفظتي، طلب منّي محمد قليلا من الشعير، لم أبخل عليه، وقسمت معه ما جادت به والدتي، وضعت حصتي في جيبي، ودون أن أشعر بدأت في التهامها دون أن أنسى وضع أصبعي على الكلمة الّتي وصل

إليها القارئ من زملائي، قراءة بعد قراءة، لم أملّ من المضغ ومن المتابعة، حتّى وقف المعلّم عند رأسي:

- **ما هذا؟؟**
- **شعير محمّص يا أستاذ.**
- **لماذا تأكله داخل حجرة الدرس؟**
- **أحسست بالجوع.**
- **أين وصل زميلك الذي يقرأ؟؟**

أريته بأصبعي الكلمة الّتي توقف عندها، سأل زملائي فأكّدوا له أنّها هي، لكنّه لم يشأ أن يدع الأمر يمرّ بسلام، طلب منّي أن أقف، ففعلت اتجهت إلى الخلف يدفعني بكرشه، حتى أوقفني الجدار، أمرني أن أستظهر سورة الرحمن كاملة، لا مشكلة حفظتها منذ سنتين، حين كانت أختي تستعدّ للامتحان كنت أحفظها مرغما، فقد كان صوتها وهي تقرأ يزلزل البيت، بدأت استظهار السورة وأنا على يقين أنّني أفلتت من العقاب، فيما كان يستشيط غضبا، رفعت رأسي لأرى ملامح وجهه وليتني لم أفعل، ذلك الخرطوم الذي كان بيده، والذي يعبق برائحة الغاز الكريهة، ينزل على رأسي، كان يصيح:

- **إلى ماذا تنظر؟ ألا تستح؟؟؟**

حميت رأسي بكلتا يدي وتركت ظهري وكتفيّ عرضة لوابل من الضربات المتتالية. شفى غليله وطلب منّي العودة إلى مكاني. لست أدري ما سبب هذا العقاب. عندما التقيته في دكّان الخياطة خاصته حين كبرت قليلا لم يجبني، بل طأطأ رأسه واعتذر.

الإملاء

الحجّوجي معلّم حازم، يعمل بجدّ، تلاميذه متمّكنون من اللغة الفرنسيّة، يدرّس المستوى الخامس منذ سنوات، طريقته في الشرح تجعل عقولنا الصغيرة تلتقط الدروس بسلاسة ويسر.

يعرف والدي، درس عنده أخواي اللذان سبقاني للمدرسة. إن كان سيعاقب أحدنا نعرف ذلك، فلديه طقوس خاصة، ينزع الساعة من معصمه، ويضعها والنظارات على المكتب، ثمّ يطوي كمّي قميصه قبل أن يستعمل الخرطوم الأحمر الذي يحبه، والذي يُستعمل لتمّرير أسلاك الكهرباء بين غرف المباني الجديدة.

أنهينا حصّة الرياضيات، لدينا حصّة الإملاء، النص مكتوب على السبّورة بخطّ واضح جميل ومقروء، قرأناه، وشرحنا كلماته المبهمة،

فهمنا أفكاره، فأعطانا مهلة لتذكّره، أو بالأحرى تذكّر رسم كلماته، قلب السبّورة، فدرّبنا على الألواح، أنهينا التدريب، أرانا النص مرّة أخيرة، قلب السبّورة وشرع في الإملاء جملة جملة، يمليها ببطء شديد، ويكرّر مرّات ومرّات، طلب من متفوقين اثنين أن يقرآ ما كتباه، وكنّا نتدارك أخطاءنا، فاصلة هنا، ونقطة على هذا الحرف، وعلامة الجمع لهذه الكلمة ...

أنهينا الإملاء، طلب منّا أن نأخذ الأقلام الخضراء لتصحيح الأخطاء، وقلب السبّورة لنقارن عملنا بما هو مطلوب منّا.

بحثت عن الأخطاء فلم أجدها، كرّرت العملية أكثر من أربع مرّات، كنت أقارن الكلمات حرفا حرفا، لم أجد أيّ خطإ. أغلقت دفتري في انتظار إنهاء زملائي للتصحيح، رفعت رأسي فوجدته ينظر إليّ، ناداني فحملت إليه دفتري وأنا متأكّد من خلوّه من الأخطاء، أخذ قلمه الأحمر باحثا عن خطإ نسيت تصحيحه، وفعلا وجده، سطر تحته بخطين، وتناول الخرطوم الأحمر، ناولته يدي، أربع ضربات متتالية، أخذت دفتري، وعدت لمكاني وفتحته مرّة أخرى، جيد تسعة من عشرة مكتوبة بخطه الجميل بجانب إنجازي، نظرت إلى السبّورة، فلمحت أسماء واقفة ترتجف أمام المعلّم، لم تصحّح هي الأخرى خطأها، رحت أبحث عن الكلمة الّتي أخطأت في كتابتها ولم أصححها، فإذا بالمعلّم يدفع الكرسيّ للخلف، يبدو أنّ أسماء ستُعاقَب، توجّه معلّمي إلى السبّورة، نظر إلى الكلمات ثمّ إليّ، وأشار بأصبعه يدعوني للالتحاق به، قمت على عجل، وأسرعت إليه، قال:

- **لماذا لم تخبرني أنّني أخطأت في كتابة الكلمة؟؟؟**
- **طأطأت رأسي خجلا، فتوجّه لباقي التلاميذ:**
- **ضعوا أقلامكم وانتبهوا!! هذه الكلمة خاطئة.**

صحّحها، وطلب منّي أن أعود لمكاني، ففعلت، صحّحت الخطأ، وقبل أن أغلق دفتري وجدت المعلّم ينحني عليه، ويكتب باللغة الفرنسيّة ممتار عشرة من عشرة.

فنسيت أنّني عوقبت على خطإ لم أرتكبه. وفرحت بالنقطة الّتي حصلت عليها.

جمل

- خذوا ورقة، وأنجزوا التمّرين، ولا تنسوا كتابة أسمائكم.

من أين سآتي بالورقة؟؟ التفت يمينا وشمالا، ثمّ إلى الخلف لعلّ أحد زملائي ينقذني ويعطيني ورقة، رجوت حنان وسلوى اللتان تجلسان أمامي، لا فائدة، فتحت محفظتي، أخرجت دفتر الفروض، نظرت إليه بحسرة، ومزقت ورقة من أوراقه الخمسين. معلّم العربية دائما ما يفاجئنا بمثل هذه الفروض، فبدأ دفتري يصاب بالهزال، كان يعاني في صمت، يتضاءل شيئا فشيئا، عكس دفاتر زملائي التي كانت سمينة.

دنت الدورة الأولى من نهايتها، واقترب موعد الاطلاع على نقطنا، كنّا نحمل دفاترنا إلى المعلّم في مكتبه، يسألنا بعض الأسئلة، ثمّ يدوّن النقطة على الدفتر، النقطة الّتي ستحدد مصير كلّ واحد منّا، ينهض الواحد منّا كلّه حماس وحيويّة، ثمّ يعود خائبا يجرّ قدميه والخيبة بادية على محيّاه، أو تراه عصفورا يطير من الفرح نحو مقعده، أمّا الّذين ينتظرون دورهم، تبدو على وجوههم علامات الترقّب والخوف من المجهول. كنت واثقا من نفسي، لغة الضاد حبيبتي ولن تخذلني، أحببتها مذ عرفتها، فبادلتني الشعور، ومكّنتني من أن أكون ما أنا عليه، أنتقي منها ما يصلح ليترجم مشاعري وهمومي، نجاحاتي وخيباتي، هواجسي وطموحي ... نهضت وكلّي ثقة في نفسي، أجوبتي صحيحة مائة بالمائة، لا أثر للون الأخضر في دفتري، وضعته أمام معلّمي، وجلست أنتظر أسئلته عن الدين وعن تاريخ المغرب وجغرافيته وكيفية حبه، وعن أجسام الحيوانات والإنسان، عواصم العالم وقاراته ...

- ما هذا الدفتر؟؟

كان سؤاله صادما، شرحت له أنّي استعملت أوراقه في الواجبات السابقة، لأنّني لا أملك غيره، ولا مال لديّ لأشتري علبة أوراق أو دفترا آخر، لكنّه لم يتقبل أن يصير دفتري نحيفا، وأن تبقى فيه عشر ورقات فقط، وكان قراره أن ينقص النقطة من تسعة إلى خمسة، أربع نقط كاملة، بهذا التصرف أعطاني مبررا لأكرهه، فلا ذنب لي إن كنت من عائلة فقيرة، ليت المعلّم عمارا يدرّسني هذه السنة، ما كنت لأتعرض لمثل هذا الظلم.

عدت إلى مكاني وقد اغرورقت عيني بالدموع، عانقت دفتري النحيل واضعا ذراعيّ على الطاولة، وضعت جبهتي على الدفتر وبكيت

بحرقة حتّى بللت غلافه، كدت أستغرق في النوم، لولا أني سمعت غزلان تقول:

- لا عليك. سينتقم الله منه.

كلماتها كانت كالبلسم، مسحت دموعي، وأدخلت دفتري إلى مكانه، ودعوت الله.

مرّت الأيام، وجاءت كما هي العادة احتفالات عيد الاستقلال، شاركنا في الاستعراض أمام شخصيات المدينة، وكان معلّم العربية هو مرافقنا والمسؤول عنّا، تجمّعت حوله الفتيات يحدثنه ويسألنه في شتّى المواضيع، غير بعيد كنت أقف، فسمعت غزلان تسأله عن قراره في حقي، أجابها بأنّني أعمل بجدّ وأنّ عملي ممتاز لكن ينطبق عليّ المثل الشعبي المغربي: "اللي حرث الجمل دكّه"، منذ تلك اللحظة قررت غزلان أن تزوّدني بالأوراق والدفاتر متى احتجتها.

عيد ميلاد

من هذا؟؟ هل هو معلّمنا؟؟ طبعا إنّه هو!! لقد تخلّص من لحيته، يبدو أصغر سنا وأكثر شبابا، كما أن ابتسامته أصبحت أكثر إشراقا، تعالت كلمات المديح من الفتيات اللّائي تحلّقن حوله :

- **صرت جميلا أستاذ!**
- **عليك أن تحافظ على هذا المظهر وتتخلّص من اللحية!**
- **تبدو وسيما هكذا!**
- **تبدو أصغر سنّا!!**

كانت كلماتهنّ تشعره بالغرور، مضت نصف ساعة، كنت حينها

منهمكا بالرسم على ورقة من الأوراق الّتي أهدتني إياها غزلان، لا زلت أحاول رسم الدوق فليد، يسهل رسمه وهو بزيّه الحربي، لكنّ بعض التفاصيل تهرب من ذاكرتي فلا أتمّم رسم دايسكي .

قراءة على عجل لتدارك الوقت الضائع، فدرس لغويّ، ثمّ قرآن كريم. انتهت الحصّة، ارتحنا لمدة ربع ساعة، مدرستي لم تتغيّر كثيرا، نفس الساحة نفس القاعات، مسكن المدير تمّ طلاؤه حديثا، وتمّ إصلاح صنابير دورات المياه الخاصة بنا.

دقّ الجرس معلنا انتهاء فترة الاستراحة، اصطففنا أمام قاعة المعلّم الحجّوجي، دخلنا مثنى مثنى، أخذنا أماكننا، بدأنا بالحساب الذهني، عمليات للقسمة والضرب ذهنيا، تلتها خمس دقائق لجدول الضرب باستعمال الألواح، مرّت على البعض منّا كأنها خمس ساعات، نال البعض حصّته من الضرب، أصبح الأمر عاديا بالنسبة لنا، تسمع صيحات بعض تلاميذ الأقسام الأخرى، لا أحد يبالي، صارت لدى أغلبيتنا قناعة بأن الضرب يقوّمنا. نبّهنا معلّمنا إلى أنّ درس اليوم يحتاج تركيزا وانتباها كبيرين، شرح لنا كيف تُحسب النسبة المائوية ونسبة الفائدة ... أنجزنا التمّارين، ثمّ صحّحنا أخطاءنا، أنهيت عملي، وأغلقت دفتري، فرحت أجول ببصري إلى أن وقع على المعلّم، كان ينظر إليّ منتظرا انتباهي له، أشار بأصبعه، فالتحقت به حاملا دفتري ظانّا أنه سيصححه، وضعته مفتوحا أمامه، أمرني أن ألفّ وأدنو منه، همس في أذني:

- أخبر أباك أن عيد ميلاد ابنتي غدا.

كرّرت جملته كي لا أنساها.

ما هو عيد الميلاد؟؟ وما دخل والدي؟؟

عدت إلى مكاني والحيرة تملؤني، أوّل مرة يقترب تلميذ من كرسيّ المعلّم، ترى ما السبب؟؟ تملّك الفضول زملائي. صرت قادرا على

القراءة باللغة الفرنسيّة، تنقصني فقط بعض الطلاقة، مرّت حصتي القراءة والتعبير بسرعة أو هكذا خيل إليّ، ونحن عند السبّورة ننتظر إشارة معلّمنا كي ننصرف، نظر إليّ فابتسمت وهززت رأسي أطمئنه أنّني لن أنسى.

وصلت إلى البيت، الجميع ينتظرني، قبّلت رأسي والديّ وحيّيت أخويّ، غسلت يدي، وجلست إلى المائدة أزدرد الطعام بنهم، فقد بلغ الجوع منّي مبلغه. أنهيت وجبتي، وانتظرت والدي عند عتبة الباب، فأخبرته حين كان مغادرا، تبعه أخواي يحملان أدواتهما باتجاه الإعدادية. وانتظرت إلى أن نامت والدتي فغادرت البيت نحو ساحة الكنيسة لعلّني أجد أحدا من أقراني أقاسمه اللعب، أو أكتفي بتسلق أشجار الحديقة المجاورة لها، وأدخل في لعبة كرّ وفرّ مع حارسها .

في المساء، سألت أختي عن عيد الميلاد فضحكت متعجّبة، ثمّ شرحت لي معناه، طلب منّي والدي أن أخبر معلّمي أنّ المخبز الّذي يعمل فيه سيتكفّل بإيصال طلبيّته إلى البيت، وأنه لا داعي لأنّ يزعج نفسه بالحضور شخصيّا .

في الغد، أخبرت معلّمي هامسا في أذنه، وزدت من حيرة زملائي، خاصّة حين ربّت بيده على رأسي، وشكرني بصوت عال، بل وأخرج قطعة حلوى وناولني إياها. دسستها في جيبي فرحا، وعدت إلى مكاني مزهوّا.

حصّة الرياضيات، الألواح مرة أخرى، مهارة الحساب الذهني تحتاج سرعة، وبعض التلاميذ لا يطيقون الضغط، خمسة أخطاء تعني العقوبة، ذاكرة معلّمنا قوية، يتذكر عدد الأخطاء الّتي ارتكبها كلّ واحد منّا، كنّا اثنين وأربعين تلميذا ولم يخطئ قطّ في ذلك. جاءت لحظة العقاب، بحث عن الخرطوم الأحمر فلم يجده، لابدّ أنّ أحدنا تخلّص منه برميه على سطح الحجرة، أو تمّت سرقته من مكانه قرب السبّورة حين

اصطففنا أمامها بالأمس. نزع ساعته، وطوى كمّي قميصه، ثمّ وضع نظاراته على المكتب، وناداني، قمت مسرعا، ظننته سيرسلني عند معلّم اللغة العربية لأحضر أداة العقاب، دنوت منه، فانحنى هامسا في أذني:

- تعرف منزلي؟؟

هززت رأسي إيجابا، فاستطرد:

- اذهب وأخبر زوجتي أنّني أحتاج خرطوما أحمر.

خرجت راكضا من حجرة الدرس، فتحت الباب الخلفيّ للمدرسة والذي صرنا نستعمله في الدخول والخروج بعد حادثة السنة الماضية، جريت باتجاه منزل معلّمي، طرقت بابه، ففتحته فتاة جميلة، تبعثرت أفكاري حين رأيتها، وارتبكت قبل أن أخبرها بطلب والدها.

حملت الخرطوم وعدت إلى المدرسة، أغلقت بابها، سلّمت الأمانة لمعلّمي، ثمّ جلست في مكاني وعيون متعجّبة ترمقني، من يومها بدأ بعض المتملّقين بالتقرّب منّي، وأصبح البعض يخافون منّي والآخرون يحترمونني رغم أن معلّمي لا يحب الوشاة.

ثقة

اليوم قرّرت أن أغيّر طريق عودتي إلى البيت، خرجت من المدرسة، سرت إلى أن وصلت شارع الحسن الثاني، وبدل أن أنعطف يمينا أكملت طريقي مباشرة، عبرت الشارع الّذي يقسم الحديقة نصفين، أكملت باتّجاه الصيدلية، دخلت الزقاق المحاذي لها، لحق بي عاليّين، سرنا إلى أن أصبح المستوصف عن يسارنا وسور ثكنة الدرك عن يميننا، بضع خطوات وننعطف يمينا لنجد شارع الثامن والعشرين من فبراير الّذي سيقودنا مباشرة إلى حيّنا، سمعنا نداء، فالتفتنا، فإذا بالممرض يطلّ من نافذة المستوصف يطلب مساعدتنا، اقتربنا منه، فأمسك بنا، ثمّ قال:

- أحدكما سيذهب للدكان ليشتري لي علبة ثقاب، والآخر سأمسك به إلى أن يعود صديقه.

أجبته:

- إن لم تطلقني سأصيح، لست مجبرا على مساعدتك. وبدأت أضرب يده، وأعضها.

كانت قضبان النافذة تمنعه من الخروج إلينا، فأطلقنا وبدأ يتوسّل مدّعيا أنّه يريد طهو غذائه.

أغرت الفكرة عاليّين، واعتبرها فرصة للحصول على درهم أو نصفه، في حين انصرفت تاركا إيّاهما يتفاوضان، فالممرض خاف أن يسرقه صديقي، فاقترح أن يترك عنده محفظته ولا يستردّها إلا إذا عاد ومعه العلبة أو المال.

انعطفت يمينا، وسرت وجدار الثكنة، التحق بي صديقي وقد اقتربت من نهايته، فتح كفّه أمامي فلاحت لي قطعة معدنية كبيرة من فئة خمسة دراهم، أغرتني بسؤاله لكنّني لم أفعل، أحكم قبضته عليها، وقال بغضب وحسرة:

- لقد اغتصبني ابن الكلب.

توقّفت أتأكّد ممّا سمعت، كرّرها وطلب منّي ألا أخبر أحدا، فوعدته. أكملنا طريقنا، إلى أن وصلنا مفترق الطرق، عبر الشارع نحو بيتهم الّذي كان أمامنا، في حين انعطفت يسارا مكملا طريقي ومفكّرا في مصير هذا اليتيم.

انتشر الخبر بعد ذلك بأيّام، فقد اعترف لأمّه حين وجدت معه ذلك القدر من المال، وهي أخبرت جاراتها، فصار بذلك عالميّين لعبة بأيدي بعض المراهقين والشبّان، إلى أن اختفى وأسرته الصغيرة.

امتحان

استيقظت باكرا، تناولت فطوري على عجل على غير عادتي، فتحت محفظتي أتأكد من محتوياتها، كلّ شيء في مكانه، كنت ألتفت كلّ لحظة إلى الساعة، الوقت يمضي مسرعا كان هذا إحساسي، حملت محفظتي، وخرجت تتبعني دعوات أمّي.

من المفروض أن نلتقي قرب المدرسة، لا أحد هنا، هل جئت قبل الموعد؟؟ أم هم الّذين تأخّروا؟؟ لا أملك ساعة لأعرف. كنت أسير جيئة وذهابا في الشارع الذي توجد به المدرسة، غريب!! لا أحد هنا!! أكيد أنّني تأخرت عن الموعد. قرّرت أن أذهب وحدي.

من الأفضل أن أسلك الشارع الرئيسيّ، من بدايته إلى نهايته، من هذا الحي سوق المخاخ إلى حي القسم أو البوركو مرورا بسوق الجمال، حسمت أمري، وسرت أتبع التلاميذ القادمين من مدارس مجاورة، سمعت مصطفى

يناديني، فانتظرته، علمت منه أنّ باقي التلاميذ ينتظرون وصول حارس المدرسة كي يرافقهم، طلبت منه أن يعلمهم أنّني سأذهب وحدي وأنّ عليهم ألّا ينتظروني.

شارع محمد سالم بيدا طويل لا ينتهي، لا ينام، دائما مزدحم، لكن اليوم يملؤه تلاميذ المدارس الأربعة الموجودة بحيّ سوق المخاخ، ربّما تواجد هذا العدد من المدارس فيه هو الّذي منحه هذه التسمية؟؟

وصلت إلى مدرسة المسيرة الخضراء، إنّها من مخلفات الاستعمار، حجرات الدراسة عبارة عن قطع معدنية كبيرة مركّبة، أمّا باقي المرفقات فكانت بناء إسمنتيّا عاديا، بالإضافة إلى الأقسام تميّزت المدرسة بملاعبها الكبيرة، اقتربت كغيري من الوافدين من السبّورة الكبيرة أبحث عن رقمي ألف ومائة واثنان وستون، نحن مجرّد أرقام، وجدته، عليّ الذهاب للقاعة الثالثة، التقيت بعض أبناء الحيّ الّذين يدسون بالمدراس الأخرى، تبادلنا كلمات قليلة، البعض يرافقهم أهاليهم، الخوف باد على الوجوه، وجدت القاعة بحثت في اللائحة المعلّقة على بابها عن رقمي، وجدته وبقربه اسمي، دخلت محيّيا الحاضرين، وجدت مكاني: الطاولة الثانية في الصف الأول قرب الباب، جلست وأخرجت أدواتي من المحفظة، وضعتها على الطاولة، دقّ الجرس، وبدأت القاعة تمتلئ، دخل أستاذان من أساتذة الإعدادية يحملان أوراقا، طلبا منّا أن نضع محافظنا قرب السبّورة، وبطائقنا قرب الأرقام المدوّنة على الطاولات. بدا الارتباك واضحا على البعض، يضع محفظته قرب السبّورة، ويعود ليجلس في مكان غير مكانه، يحمر خجلا حين يدرك ذلك، يلتحق بمكانه، ثمّ ينهض إلى السبّورة ويقلّب محتويات محفظته، يغلقها بعد أن حمل منها شيئا، ثمّ يعود لمكانه، دقّ الجرس مرة أخرى، الكلّ جالس في مكانه، ساعة الحقيقة.

وُزّعَت أوراق الأسئلة، ثمّ أوراق التحرير والتسويد، تذكّرت كلام المعلّم عمّار: " فهم السؤال يساوي نصف الجواب والنصف الثاني مسألة ذكاء،" قرأت الأسئلة مرارا، ثمّ بدأت الإجابة عنها مباشرة، اقترح عليّ أستاذ يحرسنا أن أستعمل ورقة التسويد أوّلا، فتظاهرت بذلك، ورسمت على الورقة، ثمّ زعمت أنّني أنقل منها الإجابة إلى ورقة التحرير، أنهيت عملي، راجعت إجاباتي، ألصقت الجانب الأيسر للورقة بعد طيه، فأخفى معلوماتي عن المصحّح، جمعت أغراضي، واتجهت نحو المكتب، سلّمت ورقتي، ووقّعت أمام

اسمي، وحملت محفظتي، ثمّ خرجت، في الخارج كان الجميع يتحقّقون من أجوبتهم، وكنت أفكّر في المادة التالية، أربع امتحانات في يوم واحد، اثنان صباحا، ومثلهما مساء.

أنهينا امتحاناتنا، عدت إلى البيت. لن نذهب إلى المدرسة إلى حين إعلان النتائج. وفي انتظار ذلك، قضيت تلك الفترة مستمّتعا باللعب مع أبناء الحيّ، مباريات كرة القدم يوميّا أمام الكنيسة الّتي توجد بحينا نهارا، وألعاب المطاردة والاختباء ليلا.

النتيجة

كنت ألعب كرة القدم، حافي القدمين، أتصبّب عرقا، فالصيف يبدأ مع نهاية شهر ماي، ونحن الآن نقترب من نهاية يونيو، لم يحن بعد موعد صلاة العصر، لست أدري ما الّذي كان يدفعنا للخروج من البيت في هذا الوقت، نتسلل إلى الخارج فور استسلام أمهاتنا للنوم فترة القيلولة، أذكر جيدا أنّني تسلمت الكرة من صديقي ياسين، وسمعت أحدا يصيح:

- لقد أعلنوا نتائج الامتحان.

تركت الكرة، وركضت بأقصى سرعة ممكنة، وجدت حشدا من التلاميذ والنساء وبضعة شبّان، يحملقون في السبّورة المعلّقة في الأعلى، لم أقترب منهم وتعجّبت لحالهم، فالأرقام مقروءة حيث أقف، جلت ببصري أبحث عن رقمي، ألف ومائة واثنان وستون، لقد وجدته، أعدت النظر مرّة أخرى، لكنّني لم أصدّق نفسي، فسألت شابّا واقفا بقربي، نظر إليّ باستغراب وهو يغالب

ضحكته، ثمّ أكّد لي نجاحي، وهنّأني، شكرته، حينها انتبهت لهيأتي، فشعرت بالإحراج.

عدت راكضا إلى الملعب لأكمل مباراة كرة القدم، ما إن رآني ياسين حتّى صاح بي وبدأ يشتمّ ويسبّ، ويحمّلني مسؤولية خسارة الفريق، لم أجادله، ففرحتي بالنجاح طغت على كل شيء، أكملنا المباراة وحلول الظلام، حملت نعليّ، واتجهت خائر القوى إلى البيت، وفي طريقي استوقفني منظر شبّان الحيّ وهم يلعبون الكرة الطائرة، انتبه عبد الرحيم فتوقف عن اللعب، واتجه نحوي، تبعه الآخرون، تحلّقوا حولي، سألني عن نتيجة الامتحان، فأجبته أنّي نجحت، راحوا ينظرون إليّ باستغراب، علّق أحدهم:

- **انظروا إليه!! هذه بنية جسم طفل يدرس بالمستوى الثالث.**

رد آخر:

- **سيلتهمونه في الإعدادية ...**

أمّا عبد الرحيم فطمأنّني وطلب منّي ألّا ألقي بالا لتعليقاتهم، وأمرني أن أتوجّه فورا إلى البيت لأزفّ الخبر لأسرتي.

وصلت البيت، الكل يسأل عن النتيجة، تعالت الزغاريد، فأقبلت الجارات مهنئات، تسامرن إلى وقت متأخّر من الليل، وعدن إلى بيوتهن بعد أن وعدتهنّ أمّي بإقامة حفل بالمناسبة.

نمت نوما عميقا تلك الليلة، وراودني حلم عن الإعدادية، وأساتذتها وأجوائها.

حيلة

عندما تحلّ العطلة تتغيّر حياتي رأسا على عقب، باستثناء زملائي من الأسر الفقيرة الّذين لا يبرحون مكانهم ويقضون الصيف الحار في المدينة مثلي، تنقسم البقيّة إلى نوعين:

أبناء المنطقة الّذين ولد آباؤهم وأجدادهم هنا، ولا زالت تغلب عليهم طبائع البدو، فتراهم يربّون الماعز على أسطح المنازل، أو في أحواش بنوها خصّيصا لهذا الغرض، في العطل يحملون رحلهم وخيامهم، ويغادرون إلى الصحراء، تغييرا للأجواء، وإحياء لتقاليد الأجداد.

وأبناء الوافدين الّذين أجبرتهم وظائف وأعمال آبائهم على الانتقال للعيون، يشدّون الرحال إلى مدنهم الأصليّة صلة للرحم، وهروبا

من هذه الصحراء القاحلة، وفي أسوإ الأحوال يخيّمون عند شواطئ المحيط الأطلنتي الّتي لا تبعد عن المدينة إلّا بخمس وعشرين كيلومترا.

ليس من حقّي التمّتع بالعطلة، ليس بسبب فقري ولكن نظراً لطغيان فكرة مفادها أنّ الطفل إذا لم يُشْغَل يجلب المشاكل لنفسه ولأسرته، من هنا كان قرار والدي أن نلتحق؛ أنا وأخي؛ بالكتّاب القرآني، شأننا شأن ثلّة من أبناء الحي، كنّا نحسد الفتيات على هذا الامتياز، من الفجر ونحن رهائن الفقيه، باستثناء نصف ساعة لتناول وجبة الغذاء بعد صلاة الظهر، لا يطلق سراحنا إلّا عند مغرب الشمس، كنّا ممنوعين من كلّ شيء، وأرجلنا تورّمت بسبب الحصير الّذي نجلس عليه، أمّا ظهورنا فأصبحت مقوّسة، وألم فظيع يمزقها، الكبار يستولون على الأماكن القريبة من جدران الحجرة الضيقة، فيستندون عليها، ونبقى نحن الصغار محاصرين في الوسط، ونادرا ما كان أخي يحجز لي مكانا قربه.

كيف للفقيه أن يحسّ بنا وهو جالس على فراش وثير متّكئا على وسادة ناعمة، وفي يده سبحة بيضاء كالّتي أهدتها جارتنا لوالدتي فور عودتها من الحج. كان طيّبا في الثلاثة أيّام الأولى، بل منحنا؛ أنا وأخي؛ شرف مشاركته وجبة الإفطار، سمعت الأطفال حينها يتهامسون ساخرين:

- إنه شهر العسل!! فعرفت على الفور أي نوع من الرجال كان.

بعد انقضائها تحوّل إلى شخص فظّ غليظ القلب، يضرب ويشتمّ لأتفه الأسباب. المدرسة أرحم من هذا المعتقل. كنا ملزمين بدفع درهم كلّ أربعاء وآخر كلّ أحد، إضافة إلى قالب سكّر وعلبة شاي وعلبة شمع وقطعة صابون أوّل كل شهر أو ما يعادل ثمّنها نقدا.

اليوم الأربعاء، يوم دفع الإتاوة، أيقظنا والدي لصلاة الفجر، مدّ لنا درهمين لنعطيهما للفقيه، الجوّ بارد، بدأت أسناني تصطك، وبشرتي

صارت مثل جلد عصفور منتوف الريش، ضباب وظلام دامس في الخارج، سرت أحثّ الخطى لألحق بوالدي، دلفنا المسجد، كان دافئا، وقفت أنتظر والدي الّذي احتار أين يصلّي، فوقع اختياره على الجانب الأيمن، سار إلى أن وصل الصفّ الأوّل، نتبعه أنا وأخي، فإذا بشيخ يقوم نحوي، ظننته سيشجعني جزاء استيقاظي في هذا الوقت، وتحمّلي عناء الحضور إلى المسجد، أو سيخرج قطع الحلوى والمكسرات من قبّ جلبابه ويناولني إياها، هكذا عوّدنا كبار السن، يجودون علينا ولو بكلمة طيبة أو دعاء صالح، لكنّه نهرني مدّعيا أن سنّي لا تسمح لي بالصلاة في الصفّ الأوّل، نظرت إلى والدي مستنجدا، فرأيت الغضب باديا على محياه، فما كان مني إلّا أن التحقت بطفلين كانا خلف المصلين القلائل، دخل الإمام وهو الّذي يعلّمنا القرآن في الكتّاب، صلّى بنا، ثمّ جلسنا نتلو آيات من الذكر الحكيم، أنهينا تلاوتنا، فخرجنا وعند الباب افترقنا: الكبار إلى بيوتهم وأعمالهم، ونحن إلى بيت الإمام كي نتعلّم القرآن.

بما أنّني مبتدئ وصغير السن فعليّ أن أحفظ الحزب الستّين، سورة الأعلى أحفظها منذ السنة الأولى في المدرسة، قبّلنا يد الفقيه، وأخذنا أماكننا. تسابق الأطفال لتسليم المال، فيما كنت شاردا ألهو بدرهمي، أضعها في أعلى اللوح وأدعها تنزلق لتسقط على بطني صادحا بسورة الأعلى. انتبهت على صوت الفقيه يناديني، حملت لوحي وجلست قبالته، ركبتيّ إلى ركبتيه، وضع اللوح أمامه، استظهرت السورة كاملة، لم أخطئ ولم أتلعثمّ، وضع اللوح جانبا، كنت أنتظر كلمات المديح، وقطعة الصلصال لأغسل لوحي، وأهيّئه لسورة الغاشية، فإذا به يسألني:

- **أين المال؟**
- **ها هو سيّدي، وناولته درهمي، أو بالأحرى درهمه.**
- **كنت تنوي سرقتي أيّها اللعين؟؟؟**

قال جملته ويده تمّسكني من قفاي، وتدفع رأسي للأسفل، محكما قبضته عليه بساقيه، ثمّ بدأ يجلدني بسبحته.

في البداية أحسست بالألم وصرخت بل حاولت الإفلات دون جدوى، لكنّ توالي الضربات ولّد لديّ الإحساس بأنّه لن يتوقّف، ما دفعني للاستسلام، شعرت بظهري باردا كقطعة ثلج، كأنّه ليس جزءا مني، أطلق رأسي ودفعني بضربة من رجله على صدري، فارتطم رأسي بالأرض، ضحك الحاضرون، فيما كتمّت دموعي وجميع مشاعري، وأقسمت بيني وبين نفسي أن أجد حيلة تخلّصني من الكتّاب نهائيا.

أدينا صلاة الظهر في المسجد خلف الجلّاد، ثمّ توجهنا إلى البيت، وفي الطريق وجدت أن قميصي قد التصق بظهري، فنزعته برفق، ورغم ذلك سالت الدماء من جديد، يجب ألّا يعلم أبي. تناولنا غذاءنا، وعدنا إلى السجن. خلاصي يعتمّد على إقناع والدي، لذلك بدأت بدراسته.

اليوم الأخير من الشهر، غدا يوم الدفع، طلبت من أخي ألّا يخبر والدي هذه الليلة، وأن ينتظر إلى الغد، سألني عن السبب، لم أجبه واعدا إيّاه أنّه سيعلم كلّ شيء في وقته. وفي الغد، ونحن عائدان إلى البيت ظُهراً، سألت أخي:

- **هل تودّ أن تتخلّص من هذا العذاب؟؟**
- **أنت تحلم!**
- **فقط أخبرني وأجب عن سؤالي.**
- **طبعا أريد ذلك.**
- **إن نجحت خطتي فإنّنا لن نعود إلى الكتّاب بدءا من هذا المساء.**
- **مستحيل!!!**
- **يكفي فقط أن تصمت وتؤكّد أقوالي لأبي إن طلب منك ذلك.**

- **حسنا سأفعل.**

انتظرت والدي إلى أن همّ بالخروج، فأخبرته كاذبا أنّ الفقيه رفع واجبات تعليمنا للضّعف، وإن كان نقدا فيصل إلى خمسين درهما. والدي مستعجل، وتفكيره منصبّ على عمله الّذي لا يريد أن يتأخّر عنه، نظر إلى أخي الّذي هز رأسه تأكيدا لأقوالي، الوقت يمضي ويجب أن يقرر، لم أشأ أن أترك له فرصة للتفكير، فرجوته أن يمنحنا المال، وغمزت أخي فكرر ما قلته. والدي اقتنع أنّ الإمام طمّاع، وهو يكره هذه الصفة، فما كان منه إلّا أن أمرنا بالجلوس في البيت، ومنذ تلك اللحظة تخلّصنا من الكتاتيب القرآنية، وعندما غادر أبي سحبني أخي إلى الغرفة الفارغة، حضنني وهو يهمس في أذني:

- **لم أكن أعرف أنّني شقيق إبليس.**

دفعته للخلف معاتبا:

- **جزاء سنمار، بدل أن تشكرني ها أنت ذا تسبّني.**

حول الكاتب

علي الداودي، معلم مغربي، من مواليد مدينة كلميم جنوب المغرب، حاصل على بكالوريا التعليم الثانوي من ثانوية محمد الخامس بالعيون 1995، وعلى دبلوم مركز تكوين المعلّمين بنفس المدينة 1998، اشتغاله بالتعليم، واحتكاكه مع الأطفال دفعاه إلى سرد تجربته الشخصية مع المدرسة والمعلّمين.